مصطفى صادق الرافعي في ضوء "وحي القلم" (دراسة تقييمية)

بحث جامعي

لنيل شهادة ماقبل الدكتوراة

الباحث

أنيس الرحمٰن

تحت إشراف

الدكتور ظهور الباري الأعظمي

مركز الدراسات العربية و الإفريقية
مدرسة دراسات اللغة و الأدب و الثقافة
جامعة جواهرلال نهرو
نيو دلهي—١١٠٠٦٧
٢٠٠٤م

Mustafa Sadiq Al-Rafi'i in the light of "Wahi-e-Al-Qalam" (An Appraisal)

Dissertation submitted to the Jawaharlal Nehru University in partial fulfilment of the requirements for the award of the Degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

By

Anisur Rahman

Under the Supervision of

Dr. Zohurul Bari Azmi

Centre of Arabic & African Studies
School of Language, Literature & Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

2004

مركز الدراسات العربية و الافريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi-110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067

Declaration

July 21, 2004

I declare that the dissertation entitled ***"Mustafa sadiq Al-Rafi'i fi Daw-e- Wahi-e-Al-Qalam "Derasa Taqeemiya" (Mustafa sadiq Al-Rafi'i in the light of Wahi-e-Al-Qalam: an Appraisal)*** submitted by me is in the partial fulfilment of the requirements of the award of the degree of Master of Philosophy of this University. This dissertation has not been submitted for any other degree of this University or of any other University and is my own work.

Anisur Rahman
(Research Scholar)

Dr. Zohurul Bari Azmi
(Supervisor)

Prof. S. A. Rahman
(Chairperson)

المحتويات

التقديم

الباب الأول ــ خلفية البحث والتعريف به **1-13**

الفصل الأول : الحالة الأدبية 2

الفصل الثاني: الحالة الثقافية 5

الفصل الثالث: الحالة الدينية 8

الباب الثاني ــ حياته وأعماله **14-50**

الفصل الأول : حياته 15

الفصل الثاني : أعماله الأدبية 23

الباب الثالث ــ وحي القلم **51-84**

الفصل الأول : القصة، المقالة، النقد 52

الفصل الثاني : القيم الإسلامية، القيم العربية، قضايا المرأة والمجتمع 67

الخاتمة **85**

التـــقـــديـــم

مما لا شك فيه أن الفترة التي سيطر فيها العثمانيون على مصر كانت بائسة و مضمحلة و اظلم فترات في تاريخ الأدبي العربي، و وصلت غاية من الجمود و عدم الاستقرار في القرن الثامن عشر. ففي هذه الحالة الأليمة غزا نابليون مصر سنة 1798م، و قام بإنشاء المدارس و إصدار الجرائد و إقامة المجامع العلمية والمطبعة والمعامل الكيماوية والمراصد الفلكية. ففتح المصريون أعينهم لما رأوا هذه التطورات في بلادهم، و بهتوا و دهشوا، و شعروا أنهم كانوا يعيشون من قبل في غيابة الجب مثل الضفادع.

قام المصريون في هذه الفترة بالرحلات إلى الجامعات الأوربية المختلفة لحصول العلوم الحديثة والفنون الأدبية الجديدة. وكانت النتيجة ان في فترة قصيرة امتلأت أودية النيل من الرجال العباقرة و الفنانين البارزين و الأدباء الكبار وأصحاب الفكر الدقيق. ومن هؤلاء الرجال البارزين كان مصطفى صادق الرافعي الذي كان بدون شك هبة من هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة في هذا الزمان، لينبهها إلى حقائق وجودها، لتعيش معتزة بتراثها متمسكة بقيمها ممتازة بعلوها وسموها. فقد كان أديبا ممتازا بأسلوبه البديع و بيانه الرائع وعربيا شديد الإيمان بعروبته، ومومنا قوي الإيمان بإسلامه.

كتب كثير من العلماء البارزين عن الرافعي وخدماته للأدب العربي من نواحي مختلفة ولكن معظمهم لم يعتنوا بكتابه "وحي القلم" عناية بالغة. ولأجل ذلك اخترت هذا الموضوع وحاولت أن أشير إلى قيمة هذا الجانب المبهم.

ولتحقيق هذا الهدف الجليل قسمت بحثي هذا إلى ثلاثة أبواب بالإضافة إلى الخاتمة، يشتمل الباب الأول على ثلاثة فصول، استعرضت في الفصل الأول الحالة الأدبية بعد سيطرة الفرنسيين والإنجليز على مصر، وخاصة في بداية القرن العشرين. وفي الفصل الثاني القيت الضوء على الثقافة العربية وتأثرها من الثقافات الغربية ودور الأفلام في تطوير الثقافة الغربية والعربية في مصر. وفي

الفصل الثالث ركزت النظر على الحالة الدينية ومساهمة المصلحين في مجال الإصلاح ودعوة الناس إلى العودة بالكتاب والسنة.

والباب الثاني ينقسم إلى فصلين: ففي الفصل الأول بحثت في حياة الرافعي وفي الفصل الثاني ﷺ خدماته الأدبية وخصومته مع العقاد وطه حسين وقيامه ضد المعاندين للإسلام واللغة العربية.

أما الباب الثالث فهو محور البحث عنيت فيه بكتابه "وحي القلم" بصورة خاصة. يشتمل هذا الباب على فصلين. تحدثت في الفصل الأول عن الموضوعات التي تتعلق بالأدب مثلا: القصة والمقالة والنقد. وفي الفصل الثاني ألقيت الضوء على الموضوعات التي تتعلق بالقيم الإسلامية والعربية وقضايا المرأة والمجتمع.

وأخيراً لا بد لي أن أقوم بالشكر والامتنان من أعماق قلبي إلى أستاذي ومشرفي الدكتور ظهور الباري الأعظمي الذي أرشدني على كل خطوة إلى أماكن الحسن والسداد ولم يدخر وسعاً في مساعدتي رغم ضعف صحته وشغله الكثير خلال إعداد البحث. فادعوا الله له الخير والبركة في حياته، و بعدئذ أعرب عن عميق شكري لأخينا عبد القيوم وأشفاق ظفر ومحمد عفان ونفيس أحمد ومحمد أجمل القاسمي وموظفي المكتبة العامة للعلامة شبلي النعماني في ندوة العلماء، لكناؤ، ومكتبة مولانا أبي الكلام آزاد في جامعة علي جراة ومكتبة جامعة جواهر لال نهرو، فقد كان لهم مساعدة كبيرة في إعداد هذه الرسالة.

وأخيرا أدعوا الله أن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضاه، إنه سميع مجيب الدعوات.

أنيس الرحمن خرّم

2004/7/21

البـــــــاب الأول

خـــلفـــيـــة البحـــث والتعـــريف بهـــا

الفصـــل الأول : الحـــالة الأدبـــية

الفصـــل الثـــاني: الحـــالة الثقـــافية

الفصـــل الثـــالث: الحـــالة الدينـــية

الفصـــــــل الأوّل

الحـــالـــة الأدبيـــة

كانت حالة البلاد العربية في القرون العديدة قبل تولى محمد علي الحكم في مصر و التي سيطر خلالها العثمانيون الأتراك وسلالات مملوك على مصر والبلدان العربية الأخرى بائسة ومضمحلة ووصلت غاية ما إليه من الفساد والاضمحلال في القرن الثامن عشر. فالجهل قد استولى عليهم، والظلم قد استغلهم والحكام استعبدهم، وتعطلت الحركات الأدبية والثقافية، وفسدت اللغة العربية، وابتعدت عن سلامة التركيب العربي الأصيل، حيث كثرت فيها التركية والعامية، حتى وصلت إلى غاية الجمود وعدم الاستقرار.

فغزاهم على هذه الحالة الأليمة نابليون، بدا أن الشمس قد طلعت عليهم بنور الأمل و التفاعل من الغرب بدلاً من الشرق ووفر اللغة العربية الفرص والوسائل للنموء والازدهار في بلادها.

غزا نابليون مصر سنة 1798م. و من هذه السنة طلع عليها العصر الحديث للأدب العربي، وكان مع هذا القائد العظيم كثير من العلماء والخبراء من المجالات المختلفة، الذين قد قاموا بإنشاء المدارس والمعاهد، والمجامع العلمية، والمكاتب، والمطابع، والمعامل الكيميائية، والمراصد الفلكية وسهّلوا للناس الطريق لإنشاء الجامعات، وللوصول إلى الجامعات الغربية وينهل من مناهل العذبة.

حينما سيطر العثمانيون مرّة ثانية بمساعدة البريطانيين على مصر عام 1805م.

فعيّن محمد علي باشا والياً على مصر، فرأى أن يربيّ جماعة من المصريين من يكون خير واسطة النقل العلوم والمعارف التي جاء بها نابليون، والعلوم الأوربية

الأخرى إلى اللغة العربية، وبعث لهذه الغاية بعوثاً علمية إلى الغرب في أزمنة مختلفة، ونقل علماء من هذه البعوث عشرات الكتب الجليلة إلى العربية. وقام أيضاً لتكميل هذه الغاية بتأسيس المدارس العديدة في بادئ الأمر ومن أهم تلك المدارس هي: مدرسة الألسن التي اقترح إنشاءها رفاعة الطهطاوي، والمدرسة التجهيزية الحربية في قصر العيني، ومدرسة أركان حرب في أبي زعبل، والمدرسة الطبية المصرية.(1)

لقد لعبت هذه المدارس والحركات والبعثات دوراً فعّالاً في تنمية اللغة العربية وآدابها، وكان لها اثر بالغ في تقدم مصر ونهضتها، وإرسال نور العلم في ربوع البلاد العربية وأنحائها وإلى هذه الجوانب يشير الدكتور أحمد هيكل قائلاً :

"وأهم الثمار التي جنيت من هذه الحركة الثقافية هي ظهور جماعة من المثقفين المصريين، الذين نهلوا من ثقافة الغرب وعرفوا لغته وبعض أدبه، وأصبحوا يمثلون – آخر - الأمر لوناً جديداً إلى جانب اللون التقليدي الممثل في علماء الأزهر حينذاك. وهؤلاء المثقفون الجدد سيقومون هم وتلاميذهم بزيادة التيار الثقافي الجديد والتبشير بحياة أدبية جديدة، رغم ما حدث من تعويق وانتكاس في عهدي عباس وسعيد".(2)

وفي عصر إسماعيل الذي جاء بعد ذلك ابتسمت اللغة العربية وبرزت حركة الأدب على نطاق واسع، لأنه فتح ما اغلق من المعاهد والمدارس وزاد عليها وقام بإنشاء المدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب، واسّس نظارة المعارف وعهد إليها أمر التعليم. فاتسعت الحركة العلمية في أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق، وكثرت المعاهد والمدارس، وتطوّرت اللغة العربية تطوراً بالغاً حتى أصبحت لسان التعليم ولغة التأليف. وبذلك بدا الإنجليز يرتابون عليه وأحسوا الخطر لمنافعهم في مصر كما يكتب أحمد حسن الزيات:

فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب النهضة، ويسيرون بالتعليم إلى وجهة أخرى، فاغفلوا البعوث، وأغلقوا مدرسة الألسن، وأبطلوا

المجانية، وأهملوا اللغة العربية، وجعلوا التعليم كله بالإنجليزية، وقصروه على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب.

"ولكن الأمة المصرية قد استطاعت أن تقف على رجليها، وان تمسح عينيها بيديها، فلم ترض النكوص والعالم يتقدّم. فهبّ رجالها يطلبون سيادة لغتهم في بلادهم. ويقومون هم بتعليم أولادهم، فعادت اللغة إلى المدارس، ورجعت البعوث إلى أوربّا، وكثرت المدارس الأهلية والأميرية".(3)

وفي هذه المرحلة تصادف أن نزح إلى مصر جمال الدين الأفغاني وكثير من الأدباء والعلماء السوريين واللبنانيين بغاية الإصلاح الديني والاجتماعي وإحياء الآداب العربية ونشر المعارف والأفكار الغربية الحديثة. وقد لجأوا لتكميل أهدافهم إلى إصدار الجرائد والصحف. ففي عام 1828م أنشأ الأمير محمد علي بمساعدة الأستاذ رفاعة بك الطهطاوي "الوقائع المصرية" وقد تولّى تحريرها نخبة من أفاضل الكتّاب كالشيخ حسن العطار، والإمام محمد عبده، وسعد زغلول، واصدر محمد علي باشا البقلي "اليعسوب" وإبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة "نزهة الأفكار". ولكن "لمّا جثم الاحتلال الإنجليزي على صدر مصر خمد صوت المصريين الوطني وأغلقت أكثر الصحف أبوابها، حتى إذا نشط الرأي العام من جديد ونشطت معه الحركة الوطنية، عادت الصحافة إلى النشاط، فانشأ الشيخ علي يوسف صحيفة المؤيد، وأنشأ عبد الله النديم صحيفة الأستاذ، ثم أنشأ مصطفى كامل صحيفة اللواء، واتخذت جماعة من المصريين صحيفة "الجريدة" لسانا لها وهي الجماعة التي سُميت باسم حزب الأمة. ويحال والإنجليز مراراً وأن يتكلموا بصحافتنا، ولكنها تستمر رغم إنذاراتهم وقوانين مطبوعاتهم، ويستمرّ ظهور الصحف مثل مصباح الشرق، غير للصحف الهزلية".(4)

ومن أجل ذلك قد برز كثير من النزعات والاتجاهات العربية الجديدة التي لم تكن موجودة في تاريخ الأدب العربي قبل ذلك. ومن تلك الاتجاهات الرئيسيةهي:(1) الاتجاه القومي (2) الاتجاه الاجتماعي (3) الاتجاه الفكري (4) الاتجاه الفني".(5)

الفصـــــل الثـــــانـــي

الحـــــالة الثـــقـــافيـــة

سقطت الدولة المملوكية في مصر في يدي العثمانيين عام 1517م، وظلت باقية تحت سيطرتهم حوالي ثلاثة قرون. وفي هذه الفترة الطويلة ما كانت حالة البلاد العربية عامة ومصر وسوريا خاصة في حق بلادهم ومصالح رجالها من ناحية الاقتصاد والدين والثقافة، ووصلت غاية ما إليه من الفساد والاضمحلال في القرن الثامن عشر.

أغار نابليون على مصر عام 1798م وفتح لشعبها أبواب الجامعات الغربية وتيسّر لهم الاتصال بعلماء الغرب ورجال الأدب والفكر والفن والقانون، وأتاح لهم الفرص أن ينهضوا ويتبؤوا مكانتهم ومركزهم بين أمم العالم المتمدنين. وان ينشئوا دولة قوية خالصة لنفسهم وذريتهم من بعدهم. حيث يقول شوقي ضيف:

"وقد ظن المصريون حين أقلعت الحملة عن ديارهم أنهم يبدون تاريخاً جديداً لأمة مجاهدة متحررة، فاختاروا محمد علي والياً عليهم ولكنه لم يجر معهم إلى آخر الشوط الذي كانوا يحملون به، إذ نكلّ بمن اختاروه منهم، وقد أقام مثلَ نابليون مجموعة من الدواوين، سلبها حقوقها، فقضى بذلك على أعمال المصريين ومطامحهم في اشتراكهم مع الحكام في حكم أنفسهم وتدبير شئونهم".(6)

وقد حدث التطور الأكبر حينما فتح نابليون لهم أبواب الجامعات الفرنسية، وقام بتأسيس المدارس والمعاهد الجديدة، سافر كثير من الوفود المصرية إلى فرنسا، وهناك رأت كل غريب واكتسبت منهم، وبالإضافة إلى هذا فقد كانت الكتب الفرنسية توزع على نطاق واسع في مصر. وأهم هذه الكتب تلك التي تختص بالثورة الفرنسية.

وكان لانتشار الطباعة والصحافة أثر بعيد في شيوع الثقافة الفكرية والغربية بين الشعب المصري. و "لعلّ من أهم المظاهر الثقافية التي عرفت في تلك الآونة، إنشاء المطبعة الأميرية سنة 1822م، ثم إصدار صحيفة سميت أولاً باسم "جورنال الخديو"، ثم أخذت اسم "الوقائع المصرية". وكانت تحرر أولا بالتركية والعربية، ثم صارت تكتب بالعربية وحدها".(7)

"وكذلك كان من مظاهر نمو الحياة الثقافية في خلال تلك الفترة، إصلاح الأزهر وإنشاء كلياته المتخصصة. كما كان من مظاهر نمو الحياة الثقافية أيضاً توسع الدولة في التعليم نسبياً، وبخاصة في مجال التعليم العام. ثم ازياد الاهتمام بتعليم المرأة، وإيفاد كثير من البعثات".(8)

ولا شك أن المسرحية والسينما قد أسهمت بنصيب في تنمية الثقافية وتطورها في تلك الفترة. والمسرحية نمت وتطورت في مصر في نهاية القرن التاسع عشر، ووصلت إلى مجدها وكمالها في القرن العشرين حينما اهتم بها كثير من الأدباء المصريين واللبنانيين وكونوا الفرق التمثيلية لها والمسارح لها في الإسكندرية والقاهرة.

أمّا السينما، فقد دخلت مصر لأوّل مرة في عام 1927م، "وظهر أوّل فيلم مصري في هذه السنة، وهو فيلم ليلى، وكان فيلما صامتاً، وظهر أوّل فيلم مصري ناطق سنة 1935م، وهو فيلم أولاد الذوات"،(9) ولكنها في البداية هذه الأفلام الناطقة هزيلة جداً، فنمت وتطوّرت خطوة بخطوة إلى أن وصلت إلى مرحلة من التطور، وظلّت في تطور مستمر حتى أدّت بدورها خدمات لا تنكر أحد في مجال تنمية الثقافة وتطوّرها. وكثر مشاهدها في البلاد العربية و خارجها، واعتنت بالقضايا الاجتماعية والتعليمية وسواهما.

وليس لنا من الممكن أن نغفل عن خدمات الإذاعة ودورها في مجال نشر الثقافة العربية في العالم عن طريق البرامج والأحاديث والتمثيليات والأشعار والقصص، "مما كان له أثر في الحياة الثقافية بعامة وفي الحياة الأدبية بخاصة".(10)

ولقد تنوّعت الثقافة العربية بتنوع الزمان والمكان، وانبثق منها فروع كثيرة وشاعت في أقطار البلاد العربية بذلك الأسباب المختلفة. وفي هذه البيئة الثقافية المتنوعة ولد مصطفى صادق الرافعي ونشأ وترعرع وأكمل دراسته الدينية والعلوم العصرية. وبرز على حيّز الوجود كمورخ وأديب عربي وكاتب إسلامي.

الفصـــــل الثـــالـــث

الحـــالـــة الدينـــيـــة

لقد بعث الله الأنبياء والرسل ليعلّموا الناس الشريعة والدين للحياة التي لا يمكن لأي شخص أن يكون حياً بدونها وتلعب دوراً هاماً في تنمية الحياة البشرية وتطوّرها على الأرض. ووضع الله لهم القوانين التي لم تستطع الدول والحكومات أن تأتي بمثلها في مصالح الحياة البشرية كما هي الأديان السماوية والشرائع المنزلة.

ولذا يناسب لنا أن نستعرض الحالة الدينية في مصر التي قد وصلت إلى الدرك الأسفل في القرن التاسع عشر، لأن المصريين كانوا مبتعدين عن الدين الخالص ويشملون فيه أشياء أخرى لا مجال لها في الدين الإسلامي، وأصبح الدين كالرسم الدارس وأدخلت فيه الخرافات والبدع والتقاليد المؤدية إلى الضلالة. وتحوّلت مصر من الشريعة الإسلامية إلى القوانين الوضعية وتطورت فيها سلسلة الغرب، وأصبحت أحكام القاضي مقصورة على الأحكام المدنية والجنائية، وكان هذا فقط للمسلمين، أمّا غير المسلمين فكانوا أحرارا إن شاؤا اتبعوا الشريعة وان شاؤا اتركوها. ففي هذه الحالة الأليمة ظهرت كثير من الحركات الإصلاحية في البلاد العربية و خارجها تدعو الأمة إلى العودة إلى الكتاب والسنة، منها كانت وعودة جمال الدين الأفغاني الذي جاء إلى مصر عام 1871م، ودعا المسلمين إلى وحدة الأمة الإسلامية والوطن الواحد لجميع المسلمين، و ركز عنايته على السياسة والدين على حد سواءً لأنه رأى أن السياسة هي جزء من الدين الذي لا يتجزي منه، وبدأ يطهّر المجتمع المصري من العقائد الباطلة والآراء الفاسدة، وعرض أمام الناس الدعوة الإسلامية الصحيحة في ضوء الكتاب والسنة، واكّد للناس التمسك بالكتاب والسنة والاستفادة منهما مباشرة، وتجنب المصادر الأخرى، وحثهم على الفضائل، وفعل الخير، والزجر عن الرذائل والشرور.

يقول الأفغاني بهذا الشأن في خطبته التي ألقاها بقاعة مسرح زيزينيا في الاسكندرية: "لا نجد في شرائعهم (الأنبياء والرسل) إلا الدعوة لمعرفة مبدأ الحق، وهو الله، والحثّ على الفضائل، وفعل الخير، والجزر عن الرذائل والشرور. وبعبارة ثانية لا نلقي بها إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنا إذا نظرنا إلى الكثير من الذين تبعوهم، فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق والنفاق، واتخذوها وسائط لأضرام الفتن ووسائل لإلقاء الإحن حتى أمكن للشاعر العربي أن يقول :

إن الديانات القت بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العدوات

وما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداء فاستعمله في قتل الأحباء، فبئس ما كانوا يفعلون".(11)

ولمّا جاء جمال الدين الأفغاني إلى مصر عام 1871م، استقبله الناس استقبالاً حاراً واجتمع إليه جماعة من الطلاّب والأساتذة للتعليم والاستفادة منه، وكان من هؤلاء الطلاب والتلاميذ محمد عبده الذي لازمه ملازمة طويلة واستقصى الدين من مشارعه الصافية، حتى أصبح إماماً في العلوم النقلية والعقلية ومصلحاً دينياً وداعياً إسلامياً، ومبلغا دعوة أستاذه إلى المسلمين عامة ومسلمي مصر خاصة، وقد نهض في هذه الفترة التي غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل، فقام بإصلاحات دينية واخراج الناس من سبات الظلمات والبدع والخرافات، وهداهم إلى الدين الحنيف والصراط المستقيم، الذي يسلك الناس عليه للنجاح والصلاح في الدارين، وفتح لهم باب الاجتهاد واغلق باب التقليد الذي أضلهم عن الدين الحنيف والصراط المستقيم، ودعا الناس إلى التمسك بالكتاب والسنة، أساس الإسلام، حيث يقول الدكتور شوقي ضيف:

"ولا نبالغ إذا قلنا إنه أكبر مصلح ديني عرفته الأمم الإسلامية في عصرها الحديث، فقد كان واسع الأفق بصيراً بتعاليم الإسلام وغاياته السامية، وكان يدعو دعوة جريئة إلى تحرير الفكر من كل تقليد وأن نفهم الدين على طريقة السلف في عصر الصحابة والتابعين الأولين قبل أن يظهر الخلاف بين المذاهب الإسلامية

المختلفة. وكان يعجب بالمعتزلة وآرائهم، لأنه رآهم متحررين في أفكارهم. فقد دعا أيضاً إلى العلم الحديث، فالدين الصحيح لا يخالف العلم وحقائقه الثابتة، بل إنه يدعو إلى البحث في أسرار الكون واكتشاف قوانينه، وكان ذلك يعدّ في عصره ثورة على الدين ورجاله الذي ران عليهم غير قليل من الجمود".(12)

ويقول أحمد حسن الزيّات عن الشيخ :

"وجملة القول أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين الذين يصطفيهم الله من خلقه لنصرة حقه، فيجدّدون حبل الدين، ويشيدون أركان العلم، ويدفعون عن الأرض الفساد".(13)

وقد قام الشيخ محمد عبده بخدمات جليلة في مجال الإصلاحات الدينية والاجتماعية، ومن أهمها هي:

(1) تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع العمل لسلطان غير سلطان البرهان لا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارضه إلى ينابعها الأولى. وهي الكتاب والسنة.

(2) اعتبار الدين صديقاً للعلم ولا موضع لتصادمها إذ لكل منها وظيفته يؤديها و هما حاجات البشر لا غنى لأحدهما عن الآخر.

(3) القرآن يجب أن يكون عقداً منتظمة المذاهب والآراء في الدين ومحاربة الخرافات والأباطيل التي نسبت ظلماً وزوراً إلى الدين.

(4) وقد عمل محمد عبده في ميادين إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية وكان له دور فعّال في تحويل الأزهر إلى كلية لها أنظمتها الجامعية بعد أن كان حلقاً من حلقات الدرس وأدخل العلوم الحديثة إليه، كما أنشأ مدرسة القضاء الشرعي ووضع أساس الإصلاح المحاكم الشرعية".(14)

ويقول لارد كرومر عن مدرسته الفكرية : "إنّ محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة في مصر، قريبة الشبه من تلك التي أسسها السيد أحمد خان في الهند".(15)

وبعد وفاة الشيخ حمل لواء الإصلاح الديني في مصر تلميذه البار محمد رشيد رضا لتبليغ دعوته إلى الناس ودعوتهم إلى الدين الإسلامي في ضوء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وطهّر المجتمع المصري من الكرامة والكشف والتصوف والبدع والخرافات التي ما كانت في منافع الناس والمجتمع المصري.

أما الرافعي فكان من الذين تأثروا بدعوة محمد عبده، وسلك على طريقة الإسلام، وقام بالدفاع عن الدين الإسلامي وهاجم الذين انتقدوا الإسلام. ونجده في أكثر الأحيان أنه يكتب في كتبه ومقالاته ويتغنّى في أشعاره في الدفاع عن الإسلام أو في الردّ على الملحدين والمارقين ممن بلغت بهم الجرأة أن يتقوّلوا على الله سبحانه والأديان السّماوية وأن يجعلوا نصوص القرآن في موضع الشك والمقارنة البلاغية بين الذكر الحكيم المنزل والأساليب العربية. ويذكر مفاهيم الإسلام وتعليمه باسلوب فيه من الفلسفة دقتها وتحليلها ومن الأدب عذوبة السياق وجمال المعاني حتى يثبت على الناس انه لا يعمّ السّلام في الأرض ولن يعيش الإنسان على الأرض في السكون والهدوء إلاّ إذا عمّت روح الإسلام وتعاليمه بين الناس.

ولمّا صدر الجزء الأول من ديوانه. قرأه الشيخ محمد عبده وأعجب به، وكتب إلى الرافعي رسالة قال فيها: "أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل".(16)

الـــحـــواشـــــــي

(1) انظر للتفاصيل جرجي زيدان: "تاريخ آداب اللغة العربية"، ج4، ص. 370

(2) الدكتور احمد هيكل: "تطور الأدب الحديث" في مصر، دار المعارف 1983م، ص. 29.

(3) احمد حسن الزيات : "تاريخ الأدب العربي"، مطبعة دار المعرفة، بيروت ص. 309

(4) الدكتور شوقي ضيف : "الأدب العربي المعاصر"، ص. 35

(5) أنيس المقدسي: "الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث" دار العلم للملائيين، بيروت، 1960، ص. 12

(6) شوقي ضيف : "الأدب العربي المعاصر" ص. 14

(7) الدكتور احمد هيكل: "تطور الأدب العربي الحديث في مصر"، ص. 28

(8) نفس المصدر: ص. 244.

(9) نفس المصدر : ص. 247.

(10) نفس المصدر : 248

(11) سلسلة الأعمال المجهولة : "جمال الدين الأفغاني"، تحقيق وتقديم الدكتور علي شلش، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ص. 79

(12) شوقي ضيف : "الأدب العربي المعاصر"، ص. 222.

(13) احمد حسن الزيات: "تاريخ الأدب العربي"، ص. 330

(14) أنور الجندي : "أعلام أصحاب وأقلام"، ص. 102 – 104

(15) الدكتور محمد محمد حسين: "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر" دار الإرشاد، بيروت، ص. 307.

(16) مصطفى صادق الرافعي: "ديوان الرافعي" ج2 ص. 12، بحوالة نثر مصطفى صادق الرافعي لضيف الله م. ح. م. ص 33، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.

البـــــاب الثـــــانـــــي

حيـــــاتـــه وأعـــمـــالـــــه

الـفـصـــــل الأول : الأســـــــــــــــــرة

الفصـــل الثـــاني : أعـــمـــالـــه الأدبيـــة

الـفـصـــــل الأول

الأســـــــــــرة

هو مصطفى صادق الرافعي بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي.(1) وأحد من كبار الكتاب المصريين في العصر الحديث، أصله يرجع إلى أسرة معروفة في (طرابلس الشام) حيث يعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه. ويتصل نسبه بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه(2) في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين. والشيخ محمد طاهر الرافعي هو أول رجل من هذه الأسرة الذي هاجر إلى مصر في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ومنتصف القرن الثالث عشر الهجري، ذلك سنة 1243 هـ على وجه التحديد، "ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان العثماني في الآستانة".(3) ثم تبعه آخرون من أسرته التي عرفت بالعلم والأدب والتدين.

وأفراد أسرة الرافعي سواء منهم الذين عاشوا في مصر أم في (طرابلس لبنان) معروفون بحب العلم وتربية أبنائهم عليه وعشق الثقافة الإسلامية وتعويد أبنائهم على التعلق بها. وقد اشتغل عدد غير قليل من الذين يقطنون في مصر في القضاء على مذهب الإمام أبي حنيفة بمصر، حتى آل الأمر من بعد أن وصل عددهم في وقت ما إلى ما أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى مقصورة على آل الرافعي. وقد تنبه اللورد كرومر إلى هذه الملاحظة فاثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية.(4) وربما أدخل الفزع إلى قلبه من هذه الأسرة. ومن هؤلاء الناس كان الشيخ عبد الرزاق بن

سعيد والد مصطفى صادق الرافعي الذي كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم المصرية وأخيراً أصبح رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية حيث لزم إقامته إلى آخر أيامه وفيها مات موته غامضة في تاريخها ونوعها. والرافعي أيضاً لم يذكر عن وفاة أبيه أو تاريخ وفاته غير أننا نجد في كتاب "نثر مصطفى صادق الرافعي" يذكر ضيف الله على أساس المقارنة والحساب أن تاريخ وفاته كان أمّا سنة 1918م أو 1919م. ويقول هذا على أساس بعض النصوص من رسائله فيه صراحة الحديث للرافعي عن أبيه. وهو يقول : " فالأول في 20 فبراير سنة 1918م والثاني في 9 يوليه 1919م.(5)

وكان الشيخ عبد اللطيف الرافعي من أعلام هذه الأسرة الذي ولى الإفتاء في الإسكندرية والشيخ أمين الرافعي الزعيم الصحفي المجاهد وأحد عمد الحزب الوطني وزميل مصطفى كامل، والذي يعتبر بقوة حجته واستقلال فكره واحد من المع الكتاب السياسيين المصريين. وله مؤلفات، منها "مفاوضات الإنجليز" ومن أسرته عبد الرحمن الرافعي المحامي السياسي والمعروف في مجال علم التاريخ، وكان هو واحد من أشهر المؤرخين المعاصرين الذي كتبوا تاريخ مصر في العصر الحديث.

ومن أعلام الرافعي الطرابلسيين العالم الجليل الشيخ عبد القادر الرافعي رأس الأسرة. والشاعر الشهير والمبدع عبد الحميد بن عبد الغني بن أحمد الرافعي، لقد كان له مكانة مرموقة في الشعر ولقب ببلبل سورية، وله عدة دواوين من الشعر. ومن أعلام أسرته من طرابلس الشام كان أيضاً الشيخ عبد الغني بن أحمد والد عبد الحميد وعمّ والد مصطفى صادق، وكان عالماً جليلاً وفقيهاً مرموقاً من فقهاء الحنفية، ولّى الإفتاء في طرابلس، والقضاء في تعز اليمن وأخيراً رئاسة الاستئناف في صنعاء. وفي أيامه الأخيرة مال إلى التصوف وتفرّغ للعبادة بمكة، وله عدة كتب في الأدب والفقه والتصوف".(6)

وعبد القادر الرافعي هو جدّ الرافعيين جميعاً هو أوّل من يلقب بالرافعي من الأسرة، وكانت الأسرة قبل ذلك تعرف بالبيسارية نسبة إلى بيسارة. ويقول

الزركلي: "ان التسمية إلى بيسارة هي قرية من قرى أسيوط بمصر" (7) وإذا صحّ ذلك فأسرته تكون مصرية الأصل قبل أن تصير سورية الإقامة.

ويكتب ضيف الله بشأن لقب أسرته إلى الرافعي : وكانت هذه الأسرة تلقب بلقب البيساري، ثم حدث أن عبد القادر الرافعي المتوفى سنة 1230 هجرية، وهو الجدّ الأكبر لهذه الأسرة، اتصل بالشيخ محمود الكردي الخلوتي في القاهرة، فرأى فيه علماً واجتهاداً فلقبه بالرافعي تشبيهاً له بعالم ديني آخر ظهر في القرن السادس للهجرة مع المجددين مثل الفخر الرازي. وإليها أشار السيوطي في أرجوزته التي ضمنها أسماء المجددين في الإسلام في كل قرن".

السادس الفخر الإمام الرازي والرافعي مثله يوازي(8)

ولم نجد عند الرافعي والعريان الدليل الذي يصرّح صلته بالعالم الجليل من القرن السادس الهجري. وقد سأل العريان الرافعي عن هذه الصلة فقال : "لا أدري، ولكني سمعت من بعض أهلي أن أول ما عرف منها بهذا الاسم شيخ من آبائي كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر في مسائله، فلقبه أهل عصره بالرافعي تشبيهاً له بالإمام الكبير الشيخ محمود الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية، والله أعلم".(9)

وبناء على ذلك، فلمصطفى صادق الرافعي انتماء أصيل في أسرة كانت لها مجد وشهرة ونباهة في أبنائها وذكاوة في أفرادها سواء من يقيمون في مصر أو لبنان وفيمن يعيشون في طنطا أو القاهرة.

النشـــــــأة

ولد الرافعي في يناير سنة 1880م ببلدة بهتيم – بمنزل والد أمه – من قرى مديرية القلوبية بمصر غير بعيد عن القاهرة. وأخذ ينتقل مع والده القاضي الشيخ عبد الرزاق الرافعي من مدينة إلى مدينة حتى انتهى بأبيه المقام في مدينة طنطا، وفيها قضى أبوه بقية عمره. ومن ثم اتخذها الرافعي موطناً له. وبدأ فيها حياته

الأدبية، وظلّ فيها إلى أن انتقل إلى رحمة الله "إثر نوبة قلبية قضت عليه حالاً"(10). ووارى ترابها جثمانه في "10 مايو سنة 1937م"(11) في السابعة والخمسين من عمره.

كما أنه من المعروف أن الأسرة الرافعية كانت تعرف بنزعتها الدينية وتربية أولادها بالعقيدة الإسلامية والثقافة العربية. فشبّ الرافعي في جوّها وحمل الثقافة الإسلامية العربية. والحق أن الرافعي قد تهيأ له من أسباب التكوين الديني والفكري والأدبي في إطار عصاميته الفذة ما جعل منه الأديب البارز برغم أنه لم يحصل على مؤهل و درس رسمي، أن يقوم بالدفاع عن الإسلام واللغة العربية وآدابها وثقافتها ضد الملحدين والمستشرقين ومعاندين الإسلام والثقافة العربية.

ففي هذا الجو الإسلامي قد تنفس الرافعي وترعرع، واعتنى أبوه بتربيته عناية بالغة. وقام بنفسه بتعليم ولده فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ جزء من القرآن. ويقول بهذا الصدد الدكتور شوقي ضيف. "وعنى به أبوه، فحفظه القرآن ولقنه تعاليم الدين الحنيف، ثم ألحقه في سن الثانية عشر بمدرسة دمنهور الابتدائية حيث كان يتولى عمله القضائي".(12) ثم التحق بالمدرسة المنصورة الأميرية حينما نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة. فنال منها الشهادة الابتدائية وسنه سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل".(13)

وحينما فرغ الرافعي من دراسته الابتدائية من مدرسة دمنهور الابتدائية أصابته حمى شديدة تركت وقراً بإحدى أذنيه ولم ينفع العلاج رغم عن كثرة التردد على الأطباء، بل لقد أخذ سمعه بضعف وانتقل الوقر إلى أذنه الثانية. يقول الدكتور شوقي ضيف: "أصابته حمى عنيفة – لعلها حمى التيفويد – وشفى منها إلا أنها خلفت وراءها حبسة في صوته، ووقرا في أذنيه".(14) وأخذ سمعه يضعف ويثقل حتى أصبح أصم وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره، ولم يعد يصله شيء من أحاديث الناس.

وقد همّ بها هما كبيراً، وليس له مفرّ إلا أن يلتمس العلاج عند *كل طبيب* وقد تردد كثيراً على الأطباء في بلاده. فلما لم يجد ذلك *نفعاً، رأى بصيص الأمل*

إلى أطباء الغرب لعله يجد هناك علاجه أو سماعة كهربائية كما أشار في إحدى رسائله إلى أحد أصدقائه: "أخبرني إذ حضرت حتى أتكلم معك في توسيط صاحبك أن يطلب لنا سماعة كهربائية من ألمانيا، فقد علمت أنهم اخترعوا أصنافا مفيدة تعين على السمع".(15)

وكانت هذه الصدمة التي أصابت أذنيه سبب انقطاعه عن التعليم في المدارس. فانصرف إلى مكتبة أبيه العامرة بكتب العلوم الإسلامية والعربية وآدابها، فعكف على الكتب ينهل منها. ويقضي معظم وقته في القراءة والدراسة وقد أعانه على ذلك ذكائه وهكذا تحصل على العلوم العربية والإسلامية وفروعها عبر هذا الطريق.

وتسببت هذه العلة خيراً وبركة له وزادته حرصاً على ذلك، وانقطاعه عن الناس وفر له كل أسباب المعرفة والاطلاع وأعانه على الإبداع وأوجد له مكاناً مرموقاً بين كبار الكتاب. وفي جميع الأحيان كان يلزم على نفسه المطالعة في المكتبة واعتبرها دنياه وكتبها صديقا له، ومن يقوم بزيارته يطلب منه السماع من الكتب التي تكون موجودة عنده أو عند الزائرين. فاخذ عن الناس العلم كما كان المتقدمون من علماء هذه الأمة يأخذون عن العلماء والرواة فماً لفم.

بهذا الشان يقول سعيد العريان : "وكان إذا زاره زائر في مكتبه جلس قليلاً يحييه ويستمع لما يقوله، ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه: "تعال نقرأ ..." وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف، فلا يكف عن القراءة حتى يرى في عيني محدثه معنى ليس منه أن يستمر في القراءة".(16)
ويقول أيضاً :

"وفي القهوة، وفي القطار، وفي الديوان، لا تجد الرافعي وحده إلا وفي يده كتاب. وكان في أول عهده بالوظيفة كاتباً بمحكمة طلخا، فكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود، فيأخذ معه في الذهاب والإياب (ملازم) من كتاب أيّ كتاب ليقرأها في الطريق".(17)

فـــي الـوظيـفـــة

حصل الرافعي على وظيفة كاتب في محكمة طلخا الشرعية في أبريل سنة 1899، بمرتب شهري أربعة جنيهات.(18) وآنذاك كان الرافعي في التاسعة عشرة من عمره. وأعانه على نيل الوظيفة في هذا السن المبكر ما كان لأبيه وأسرته من جاه في القضاء والفتوى. وقد مرّ بنا الذكر أنه اجتمع في أسرة الرافعي، في وقت ما، أربعون قاضيا في مختلف المحاكم المصرية. وكان هذا هو السبب الرئيسي في إزالة العقبات للحصول عليها.

ظل الرافعي في محكمة طلخا إلى مدة طويلة غاديا و راحيا من داره في طنطا بالقطار، ثم نقل من محكمة طلخا إلى محكمة ايتاي البارود، الشرعية، ثم إلى طنظا، وفى طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين. يذكر محمد سعيد العريان سببه: "لأنه رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع و أرحب، والعمل فيها أيسر جهدا وأكثر أجرا ، وظل في محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير".(19)

فحياة الرافعى الوظيفية في طنطا وفرت له الفرص بالاتصال بالشخصيات البارزة، ففي هذه المرحلة عرف الرافعى الكاظمى شاعر العراق الكبير واتصل به وانعقدت بينهما أواصر الود التي لعبت دوراً هاماً في حياته الأدبية، وتفتحت زهرة شبابه للحب وظهر أول ديوان له على منصة الشهود وهو في باكورة حياته، وعرف في اقطاع العربية بحيث الشاعر.

وفى سن الرابعة والعشرين (سنة 1904) تزوج الرافعى من أخت الكاتب الصحفى عبد الرحمن البرقوتى وقد دام زواجه ثلاثا وثلاثين سنة. وهيأت هذه الزوجة الكريمة للرافعى الجو الذي يحتاج إليه الأديب فما كان هناك شيء يشغل باله من أمور البيت، فعكف على كتبه وأوراقه وقلمه.(20)

الحـــــــواشـــــــي

(1) خير الدين الزركلي: "الأعلام، قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين" (دار العلم للملائيين، بيروت، 1986) ج7 ص. 225

(2) محمد سعيد العريان: "حياة مصطفى صادق الرافعي" (مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1955) ص. 24.

(3) نفس المصدر: ص. 24

(4) ضيف الله م. ح. م.: "نثر مصطفى صادق الرافعي"، (دار ومكتبة الشركة الجزائرية، 1968) ص. 14.

Jawaharlal Nehru University Library

TH-18799

(5) نفس المصدر : ص. 12.

(6) الزركلي: الأعلام، ج5، ص. 112.

(7) الزركلي: الأعلام، ج4، ص. 40

(8) ضيف الله : "نثر الرافعي" ص 13.

(9) أنيس المقدسي: "الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة"، (دار الكاتب العربي، بيروت، 1963) ص. 304.

(10) العريان: "حياة الرافعي" ص. 342.

(11) الدكتور شوقي ضيف: "الأدب العربي المعاصر في مصر" (دار المعارف، القاهرة) ص. 242.

(12) العريان : حياة الرافعي، ص. 28

(13) شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر، ص. 242.

(14) ضيف الله: نثر الرافعي، ص. 18.

(15) العريان : حياة الرافعي، ص. 33.

(16) نفس المصدر: ص. 33.

(17) نفس المصدر: ص. 34

(18) العريان : حياة الرافعي، ص. 35.

(19) محمد يوسف كوكن: "أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث" (دار حافظة للطباعة والنشر، مدراس 1982) ج3، ص. 13

الفصـــــل الثـــــانـــــي

أعـــمـــالـــه الأدبيـــــة

الـــرافعـــي الشـــاعـــر

بدأ الرافعى حياته الأدبية شاعرا وانتهى كاتبا وكان سبب ذلك أن البلاد كانت تذخر بالشعراء الفطاحل ، وقد لايجاوز حدود الصواب إذا قلنا إن الرافعى ما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً مثل البارودى وحافظ ومطران وصبري ، وكان في نفسه طموح وأمل أن يكون ذات يوم أمير الشعراء. وقد بدأ نظم الشعر وهو في العشرين من عمره . وكان ذلك أول عمل له للوصول إلى غايته. حيث أكب على حفظ الأشعار من فحول الشعراء العربية كما هو يقول: "يعلم أن الحفظ وقراءة دواوين فحول الشعراء من أهم الوسائل في تنمية ملكة الشعر، والبلوغ فيه أقصى مراميه.(1)

أصدر الرافعى الجزء الأول من ديوانه في سنة 1903م، وكتب في مقدمته عن الشعر وفنونه ومذهبه وأوليته، والجزء الثاني من ديوانه في سنة 1904، وفى عام 1906م ظهر الجزء الثالث، وفى عام 1908 الجزء الأول من ديوانه النظرات. ولقي حفاوة بالغة من علماء العربية وأدبائها قل نظيرها. حتى كتب الشيخ محمد عبده رسالة إلى الرافعى إثر صدور الجزء الثاني من ديوانه، جاء فيها : "أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل، وان يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل".(2)

وكتب الزعيم مصطفى كامل الباشا يقول : "وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعى قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان".(3)

كما ذكرت سابقاً أن الرافعى قد أتاحت له الوظيفة في طلخا بالاتصال بالكاظمى الشاعر العراقي الكبير، وارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ

والأستاذ. وقد تعلم الرافعي منه حسب استطاعته. حتى أصبح الرافعى "أصفى أصفياء الكاظمي ، وصار الكاظمى اشعر الشعراء المعاصرين عند الرافعى ، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ، وتصادقا صداقة النظراء، حتى انه لما همّ الكاظمى أن يسافر إلى الأندلس في سنة 1905م كتب كتابا إلى الرافعى يقول فيه: "...ثق أنى أسافر مطمئنا وأنت بقيتى في مصر".(4)

وكان له أيضا صلة وطيدة بالبارودى وحافظ إبراهيم. ولمّا نشر الجزء الأول من ديوانه فقرظه البارودى وأشاد بفضله. من حيث يقول سعيد العريان:

"هؤلاء الثلاثة : البارودي، وحافظ، والكاظمي، هم كلّ من أعرف ممن تأثر بهم الرافعي من شعراء عصره".(5)

ويبدو في أشعاره متأثرا بمدرسة البارودي، ويسلك على شاكلتها وأفكارها بالصياغة القديمة، وقرض أبياته في الغزل والتهاني والمراثي والمشاعر الوطنية ولإسلامية والقضايا تتعلق من المجتمع المصري. يقول في قصيده موضوعها اللغة العربية والشرق.

أم يكيد لها من نسلـــها العقب ولا نقيصة إلاّ ما جني النسب

كانت لهم سببا في كل مكرمة وهم لنكبتـها من دهرها سبب.

ويقول مؤنبا طلاب الأدب الأجنبي:

أنترك الغرب يلهينا بزخرفه ومشرق الشمس يبكينا وينتحب

وعنـــدنا نهـر عـذب لشاربه فكيف نتركه في البحر بنسرب

فهل نضيّع ما ابقي الزمان لنا وتنفض الكف لا مجد ولا حسب

إنا إذن سبّة في الشرق فاضحة والشرق منا وإن كنابه خرب".(6)

ولمّا انتشرت نيران الثورة ضد الإنجليز في مصر دوى صوت الشعب إلى جميع أنحاء البلاد هاتفاً: إلى المجد إلى المجد، إلى الموت أو الحرية، واجتمع الناس إلى تشيد هذه النهضة يعبّر عن أمانيها وغايتها، فنظم تشيد الاستقلال الذي اصبح نشيد البلاد القومي من سنة 1923م إلى 1936م وهو:

أسلمـي يا مصر أتى الفداء ذي يدي ان مدت الدنيا يدا

وقد كتب عن مصر شعرا لم يكتبه غيره في أنا شيده الرائعة العديدة الشهيرة وقد تقدّم بهذا النشيد إجابة لرغبة شبان الوفد وهو :

حمـاة الحمي، يا حماة الحمي　　هلموا، هلـــوا لمجد الزمن

لقد صرخت في العروق الدّما　　نموت، نموت ، ويحيا الوطن

وله نشيد آخر، يقول فيه:

إلى العلاء، إلى العلاء، بنى الوطن　　إلى العـلاء، كل فتـاة وفتـى".(7)

ولا شك في أن الرافعي كان ولوعا منذ نشأته في الشعر بالأناشيد الوطنية و الأغاني الشعبية. وقد تغني في الجزء الأول من ديونه بقصائد وطنية عديدة تبعثر عاطفة الشعب المصري منها:

بلادي هـواها و في دمـى　　يمجدّها قلبي ويدعو لها فمي

يقول سعيد العريان بشان أناشيده:" لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعي في تأليف الأنا شيد، ولم يكتب لنشيد وطني أو طائفي من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعي، فهو بذلك خليق أن نسميه "شاعر الأناشيد".(8)

بعد انتهاء الجزء الأول من ديوانه النظرات انقطع الرافعى عن الشعر و انتهت حياته كشاعر، و بدأت حياته كمؤلف، ولكنه لم ينقطع عن الشعر انقطاعا تامًا، وكان ينظم الأشعار بمناسبة الاحتفال حول موضوعات شتي. كما مرّ بنا أن الرافعي قد نظم النشيد القومي بعد ثورة عام 1919م.

الـــرافـعـــي المؤرخ

وسبق أن ذكرت أن الرافعي قد ترك تقريض الأبيات وانصرف إلى النثر وميدانه الرحيب، حيث لا يتقيد بالقوافي والأوزان بسبب مهما كان. ويشير ضيف الله م. ح. م. إلى هذا الجانب قائلا: "أنه همّ قبل أن يهجر الشعر بمدة طويلة أن ينشى

كتاباً مدرسيا في (ملكة الإنشاء) يكون نموذجاً للمتأدبين وطلاب المدارس، يحتذون حذوه وينسجون على منواله".(9)

ولما أنشئت الجامعة المصرية وأعلنت عن مسابقة بتأليف كتاب في تاريخ الأدب، فترك نظم الأشعار، وعكف على الأدب العربي يدرسه طامحاً أن يكون مدرساً في الجامعة، يحاضر طلابها ويحادث مع أساتذتها. وبهذين السببين انقطع عن الشعر ومال إلى النثر وميدانه الواسع.

وقد أكبّ الرافعي على تأليف كتابه من منتصف سنة 1909م إلى آخر سنة 1910م، وفي سنة 1911م، أتم طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحلّ الأجل الذي عيّنته الجامعة. ولم يتقدم به إلى الجامعة "ترفعاً عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصر منه بالمحكوم فيه"(10) فسبق تاريخ آداب اللغة العربية للأديب البارز والمؤرخ الشهير جورجي زيدان.

والكتاب يشمل على ثلاثة أجزاء. وتناول الرافعي في الباب الأول من كتابه "تاريخ آداب العرب"، تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك وتاريخ الرواية ومشاهير الرواة. وقسم تاريخه في أثناء عشر باباً، وعلل ذلك بقوله:

"وقد جعلنا أبوابه اثني عشر بابا تنطوي على جملة المأثور، ويدور عليها التاريخ كما تدور السنة على عدة الشهور".(11)

والحقيقة هي أن الكتاب جيد في موضوعه وجديد في تبويبه وعميق فيما يتناول من قضايا وعزيز في مادّته العلمية. وبناء على ذلك نال الكتاب الاستحسان والإشادة من قبل الجمهور. وكتب عنه الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد في جريدة قائلاً :

قرأنا هذا الجزء، فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاما، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلاّ بعد درس طويل وتعب ممل".(12)

ونال الرافعي بهذا الكتاب شهرة واسعة في المجالات العلمية والأدبية في أقطار البلاد العربية وخارجها.

الجـزء الثـاني : إعجـاز القـرآن والبلاغة النبوية

وضع الرافعي هذا الجزء في عام 1912م، وقد بحث فيه عن إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وهو متألف من بابه واحد، وهو الباب الثالث حسب الترتيب الذي ذكره المؤلف في الجزء الأول. ولما أصدر الرافعي نفسه الطبعة الثانية فبدأ له أن يغير اسمه، فاختار له هذا الاسم الجديد (إعجاز القرآن و البلاغة النبوية) وبهذا الاسم يعرفه قراء العربية و آدابها.

يقول الرفعي بشأن تفسير اسمه في مقدمته الطبعة الثانية : "كان هذا الكتاب مبحثاً من مباحث كتابنا الكبير "تاريخ آداب العرب" ثم أفردناه ليكون كتاباً بنفسه تعم به المنفعة، ويسهل على الناس تناوله"(13)

يشتمل الكتاب على باب واحد، وفيه فصلين. وفى الفصل الاول يبحث عن تاريخ القرآن والقرأة وطرق الأداء و تاثير القرآن في اللغة و آداب القرآن و العلوم وسرائر القرآن و تفسير آية ولإعجاز و البلاغة النبوية و نظم القرآن و إعجاز تأليفه، والحروف و أصواتها و الكلمات وحروفها و الجمل و كلماتها و قرابة أوضاعه التركيبية والبلاغة في القرآن والطريقة النفسيه في الطريفة اللسانية و إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة. والفصل الثاني يتعلق بالبلاغة النبوية ويذكر فيه البلاغة الإنسانية و فصاحته صلى الله عليه وسلم وصفته صلى الله عليه و سلم و أحكام منطقه صلى الله عليه و سلم و اجتماع كلامه و قلته صلى الله عليه و سلم ونفى الشعر عنه و تأثيره في اللغة صلى الله عليه و سلم و نسق البلاغة النبوية. ودعائم البلاغة النبوية.

يكتب محمد رشيد رضا عن الرافعى و تدبره في معانى آيات القرآن وفهمه الدقيق فيه: "استوى إلى هذا وانتدب له الأديب الأروع، والشاعر الناثر

المبدع،صاحب الذوق الدقيق،وا لفهم الدقيق، الغصواص على ظواهر المعاني الضارب على أوتار مثالثها و المثانى، صديقنا الأستاذ (مصطفى صادق الرافعى) فصنف في إعجاز القرآن سفراً لا كالأسفار، اتى فيه ـ وهوا لأخير زمانه ـ بما لم تأت به الأوائل ، فكان مصداقا للمثل الثائر "كم الأول للأخر".(14)

الجزء الثالث من تاريخ آداب ا لعرب

اصدر هذا الجزء بعد وفاة الرافعى تلميذه النجيب سعيد العريان. ولما مات الرافعى كان في مكتبه ورقات مبعثرة ،و قام سعيد العريان بجمع هذه الأوراق المبعثرة في شكل كتابي مبسوط. ويذكر العريان العقبات التي اعترضت سبيله :"لقد كنت مخطئا حين حسبت في أول أمري أنى ساجد ـ حين أجد ـ كتابا تام التأليف و التصنيف، ليس عليّ منه إلا أن أهيئه للطبع، تم أصحح تجاربه في المطبعة؟ فإني ما كدت احل الرباط عن الأضابير التي تضمه حتى وجدت أوراقا بالية حائلة اللون من تقادم السنين، و قصاصات مبعثرة عن غير نظام، لا يكاد يعرف أين مكانها من موضوعات البحث. تم جهدت أن اعرف. موضوعات الكتاب ونهجه و تبويبه، فلم اهتد إلى شئ، ولم أجد بين يدي إلا ورقات قد اجتمعت على غير ترتيب ولا نظام،في كل صفحة منها حديث عن موضوع يسألها بما قبلها ولا بما بعدها سبب.

وحاولت أن اقرأ صحيفة مما بين يدي، فأعياني ذلك إعياء أيأسني من الاستمرار، فان خط الرافعى كما قلت في بعض ما كتبت عنه، هو أردأ خط قرات في العربية، حتى لقد كان يعيا هو نفسه أحيانًا عن قراءة بعض ما يكتبه بخطه بعد مضى ساعات. وحملت على نفسي ما حملت، ومضيت في القراءة متكلفا مالا قبل لي به، فإذا الحديث ينقطع بعد اسطر، و إذا هو يحيل على مراجع مختلفة، يريد أو ينقل منها نصا أو خبرا أو رأياً، ومنها ما لا أملك ولا يتيسر لي . و قد يذكر رقم الصفحة المنقول عنها، وقد لا يذكره، وحينا يذكر رقم الصفحة يغفل اسم الكتاب"(15)

وسبق أن قلت إن الرافعى قد قسم كتبه في اثنا عشر بابًا، والجزء الأول يشتمل على بابين والثاني على باب واحد. وعلى مقتضى هذا الطريق يلزم أن تكون الأبواب التسعة الباقية للجزء الثالث ولكن هذا الجزء الذي أكمله سعيد العريان يشتمل على خمسة أبواب: وهى : الخامس والسادس والسابع والعاشر والحادي عشر. والسبب في ذلك أن الرافعى قد شغل بكثرة الأعمال بعد تكميل "إعجاز القرآن" فمن المحتمل أن الرافعي ما كتب عن الأبواب الأربعة الباقية التي ذكرها في مقدمة الجزء الأول، أو كبتها ولكن ضاعت بسبب طول المدة أو الحالة والظروف لم يهيأ له تكملتها. يقول سعيد العريان:

" ولكني لم أجد فيما بين يدي من المخطوط حديثا عن هذا الباب، إلا فهارس و جزازت وأرقام صفحات في مراجع مختلفة، فتركت هذا الباب إلى ما بعده."(16)

ويقول أيضا: "ثم تجاورت البابين الثامن والتاسع،إذ كان شأنهما شأن الباب الرابع".(19) والكتابة يشتمل على خمسة أبواب وهى:

الباب الخامس : تعريف شعر العربي ومذاهبه.

الباب السادس: في حقيقة القصائد المعلقات وشعرائها

الباب السابع : الأدب الأندلس

الباب العاشر : في التأليف و تاريخه عند العرب ونوادر الكتب العربية

الباب الحادي عشر : في الصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون .

الـــرافعـــي الأديـب

مال الرافعي بعد تأليف إعجاز القرآن إلى تأليف الكتب للطلاب الناشئين، والغرض منه كان تربية ملكة الإنشاء في نفوسهم. كما هو يذكر غايته بقوله:

"أرجوان أكون قد و ضعت لطلبة الإنشاء المتطلعين لهذا الأسلوب، أمثلة من علم التصور الكتابي، الذي توضعه أمثلته ولا توضع قواعده، لأن هذه القواعد

في جملتها الهام ينتهي إلى الإحساس، و إحساس ينتهي إلى الذوق،و ذوق يفيض الإحساس و الإلهام على الكتابة جميعا، فيترك فيها كحياة الجمال، لا تداخل الروح حتى تستبد بها، ولا تتصل بالقلب حتى تستحوذ عليه، فتكون له كأنها فكرة من ذاته."(18)

حـــديـث القـمـــــر

هو ثاني كتابه من الكتب التي ألفها الرافعى بعد عودته من رحلة قام بها إلى لبنان عام 1912م، حيث وقع نظره على فتاة لبنا نية فتعرف بها، وكانت شاعرة من شواعر لبنان. يتناول الكتاب شتى الموضوعات من الحب والجمـــال والزواج و الطبيعة. وهذا هو أول كتاب ما نشره المؤلف من أدب الإنشاء و نثره الفني، وقد تفنن في معانيه و أساليبه تفننا رائعا، حتى بعدت بعض معانيه،كما قال سعيد العريان: "هو أول ما نثر الرافعى من أدب الإنشاء، أصدره بعد كتابيه: تاريخ آداب العرب وإعجاز القرآن. وما بي أن اصف لقراء العربية، فهو مشهور متداول وهو أسلوب رمزي في الحب، على ضرب من النثر الشعري، أو الشعري النثري، يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما في أسلوب فني مصنوع لا أحسبه مما يطرب الناشئين من قراء العربية في هذه الأيام، إلا أن يقرؤه على انه زاد من اللغة، وذخر من التعبير الجميل، ومادة لتوليد المعاني و تشقيق الكلام في لفظ جزل و أسلوب بليغ".

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والابهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتعددين".(19)

وقد سبق أن ذكرت أن الكتاب قد القه الرافعي للطلبة الناشين ولكن لم ينس أن يزوّد بأفكار دينية وأخلاقية، فهو يذكر فيه بكثرة الأفكار الإسلامية و المعني القرآنية. وهو أيضا من الأدباء الذين يؤمنون بأن: "الموهوب هو الذي يجمع بين القمة الفنية و القمة الإنسانية الكبيرة"(20) وعلاوة على ذلك توجد فيه أيضا صور إنسانية عميقة والقضايا الاجتماعية مثل الفقر و الغني و الأخلاق و العادات. كما هو

يقول: " ولا تحسبن الأغنياء المجرمين على غني، فان كل شئ يسرق حتى الغنى، و حتى اللص يسرق نفسه من يدي الشرطي، بعد أن يكون قد جمعها عليه. والفقير الذي يطمح إلى الغنى، كالغني الذي يطمح إلى ما هو اغني كلا هما فقر، وكلاهما طريق الجريمة ."(21)

قد سبق أن قلت إن الرافعي في بداية عهده بالأدب كان ينظم الشعر مع الطموح والأماني أن يكون فيه رائداً مثل البارودي، ولكنه هجره بعد نشر ديوانه "النظرات" لأمر من الأمور، ولكنه لم يهجره هجراً تاماً وكان ينظم الشعر حينا بعد حين. وفي هذا الكتاب نحن نرى أيضاً القصائد الشعرية. وهنا أنا أذكر بعض الأشعار من قصيدته التي يذكر فيها عن "الشرق المريض".

يا من لهذا المريض المد نف العاني مردد النفس من آن إلى آن
إذا رأى الليل جنّ القبر شق له أنجمه آثار أكفان
ويحسب الصبح باب الموت لا ح به وفوقه الشمس قفل فتحه داني

كتاب المساكين

ألفه الرافعي في أثناء الحرب العالمية الأولى عام 1917، متأثرا ومتألماً مما أصاب الناس في الأرواح والعمران آنذاك. وفي هذه الفترة التقى الرافعي بالرجل الصوفي يقال له الشيخ علي الجناجي حينما زار أصهاره في "منية جناج" وكان الرجل يعيش وحده بغير بيت يأوي إليه في الليل وبدون حقل يكسب منه قوته، فيدور على الأبواب وينام في الليل حيث يجد مكاناً سواء في دار أم في طريق.

ولقيه الرافعي واستمع إلى خبره، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة"(22)

ويضيف ضيف الله سبباً آخر لتأليفه، وهو "ليعارض به كتاب البؤساء لفكتورهيجو... وقد قرأ ترجمة الجزء الأول من البؤساء الذي ترجمه حافظ إبراهيم من الفرنسية إلى العربية سنة 1903، فاعجب به وبلغته ومعانيه وأهدافه، فاثر ذلك في نفسه".(23)

ويذكر هو في تأييد هذه النظرية ما كتبه الرافعي نفسه عن ترجمة حافظ للجزء الثاني من البؤساء في ترجمته إلا فكر فيلسوف تعلق في قلم شاعر، فانعطف عليه حواشي البيان من كل ناحية، وجاء ما تدري، أشعرا من النثر؟ أم نثراً من الشعر؟ وخرجت به من الكتابة في لون من الصفاء، والإشراق، كأنما تتحمل عليه أشعة الضحى".(24)

وذهب أيضاً إلى هذا الرأي شوقي ضيف إذ هو يقول: "فنراه يخرج كتابه "المساكين" معارضاً به كتاب "البؤساء لفكتور هيجو".(25)

وفي مقدمة الكتاب ذكر المؤلف معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنساني، والكتاب يشتمل على فصول شتّى ليس له وحدة تربطها سوى الآلام الإنسانية الكثيرة المتعددة. وقد كتب كثير من الأدباء والباحثين من البلاد العربية وخارجها عن البؤس وأهله على طريقتهم التي تختلف عن طريقة الرافعي في هذا الكتاب، ولكن الرافعي قد أخذ الفكرة الأساسية في الكتاب، وكتب في اللغة العربية الفصحى، واختار فيه مسلك الأديب الاجتماعي، أو الأديب الإنساني، فصار الكتاب بأسلوبه النادر وموضوعه القيم ذا قيمة أدبية واجتماعية وأخلاقية.

يذكر المؤلف غرض تأليفه بقوله : "فإني قد وضعت هذه الأوراق وكتبت فيها عن الفقر وما هو من باب الفقر لا لمحوه ولكن للصبر عليه، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه، ثم كتبت عن الغنى وما إليه، لا رغبة في إفساده على أهله، ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله، وأردت الكلام في كل ذلك على الوجه الذي يراه الشاعر في ضحك الطبيعة ورقتها، دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوف في عبوس المادة وجفائها، ونحوت به من نسق العقل في بث خواطره للنفس، لأني أريد به النفس في مستقرها، وجئت به من مبرق الصبح لا من غياهب الليل، وأطلعته

من أفق الإيمان لا من قرارة الشك،وأردت به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس، فان من ضرائب اللؤم و غرائر السوء في هذا الإنسان أنه ما ينفك يحمل نعم الله ورحمته وما لا حدّ له من العناية الإلهية، ولكن كما يحمل الطاؤوس ألوانه وتحاسينه و زينته البديعة على ساقين مجرودتين في الغاية من القبح كأنهما من غراب".(26)

والكتاب يشتمل على فصول عديدة، وهي : الشيخ علي، ووحي الروح والفقر والفقير، ومسكينة مسكينة، ولؤم المال ووهم التعاسة، ووهم الحياة والسعادة، وسحق اللولؤة، والحظ والحرب. ولا توجد بين الفصول وحدة تربطها سوى أنها صور من الآلام المتنوعّة تواجهه الإنسانية ليلا ونهاراً.

ولقي الكتاب احتفالاً كبيراً من أهل الأدب حتى قال عنه أحمد زكي باشا: "لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، و وجوته كما للألمان جوته".(27)

رســـائـــل الأحـــزان

قبل أن نلقى الضوء على هذا الكتاب يناسب لنا أن نذكر أن رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد، كتبها الرافعي في فترة ما بين عام 1924 و 1931م وفي كل منها يبحث عن ناحية من نواحي الحب. ويقول ضيف الله "فرسائل الأحزان يتناول طرق المراسلات الغرامية، وأساليبها المختلفة من اللين والشدّة، حسب ما يحس به الحبيب أو المحب. والسحاب الأحمر يبحث في غضب المحب. وغضب الحبيب، كما يبحث بعض الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية. أما أوراق الورد فيبحث في الخلجات النفسية، وما يتصل بها من الحكم والأمثال للبرهنة والاستدلال، وكأنه يريد أن يجمع فيه بين العقل والقلب".(28)

أصدر الرافعي كتابه "رسائل الأحزان" في فبراير عام 1924م في آنسة مي زيادة بسبب تعلقه بها، يذكر فيه عاطفة الحب وفلسفة العلاقة الخالدة بين الرجل

والمرأة في أسلوب مشرق وبلاغة مرهقة. والكتاب يشتمل على رسائل غرامية كتبها إلى مي زيادة، لبنانية الأصل ومصرية الجنسية وأديبة العربية الشهيرة، أنشأت نادياً في القاهرة للمسامرات الأدبية، لقي الرافعي منها في هذا النادي.

يخاطبها الرافعي في رسائله إليها بضمير الغائب المذكر إذ هو يقول: "كان لي صديق خلطته بنفسي زمناً طويلاً. وكنت اعرفه معرفة الرأي كأنه شيء في عقلي، ومعرفة القلب كأنه شيء من دمي، ثم وقع فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسيني، وطار على وجهه حتى غاب عن بصري".(29)

أصدر الرافعي الكتاب عام 1924م، وطريقته فيه تشبه إلى حد بعيد طريقة الكاتب الألماني (جوت) في كتابه (آلام فرتر) والرافعي كان في معارضة لآلام فرتر كما هو يقول : "إن كتاب أحزان فرتر مشهور في لغات أوربا وآدابها، فانا أريد معارضته، وقد قام في ذهني أن لا راحة لي إلا إذا أخرجت مثله".(30)

ويقول ضيف الله : يخيّل إليّ أن الكتاب معارضة لآلام فرتر وأن الدافع ذلك ما قرأه في مقدمة الدكتور طه حسين التي كتبها لكتاب آلام فرتر الذي ترجمه الزيّات من الفرنسية إلى العربية سنة 1920م".(31)

والحقيقة هي أن قبل ترجمة آلام فرتر إلى اللغة العربية لم يكتب أي كتاب في هذا النوع من الوصف والفلسفة كما يقول الدكتور طه حسين في مقدمته معترفاً بها "أضف إلى ذلك أن اللغة العربية لم تؤلف هذا النوع من الوصف والفلسفة، لأن أبناءها لم يسلكوا بها هذا الطريق".(32)

فإذاً الرافعي هو أول أديب في اللغة العربية الذي اخترع هذا النوع الغرامي من الوصف والفلسفة والحب بالطريقة الحديثة وطريقة التأثر والانفعال والرضا والسخط والإذعان والثوران.

يقول ضيف الله مؤيداً نظرية التشابه بين الكتابين على أسس متعددة:

1- وحدة المنهج، فكلاهما الف على شكل رسائل.

2- وحدة الموضوع، فكلاهما تعبير عن حب يأس

3- وحدة الطريقة، كلا المؤلفين يتحدث عن نفسه تحت اسم آخر، حقيقي عند جوت وهو فرتر، ورمزي عند الرافعي وهو الشخص الذي جرده من نفسه، بالإضافة إلى تشابه النفسين في المشاعر.

وقد كتم الرافعي بعد التصريح أمر المعارضة، فما السبب في ذلك؟ "إن الغرض من وراء ذلك أن يحقق لنفسه الأسبقية في هذا النوع من الأدب".(33)

أهدى الرافعي نسخة من كتابه إلى الدكتور طه حسين بعد نشره وسأله راجياً منه أن يقول فيه كلمة حسنة كما قال في آلام فرتر بسبب تشابه في الموضوع، ولكن الأمر ما كان موافقاً له. هنا يأتي السؤال في أذهان القاري ما كان السبب الذي منع الدكتور طه حسين أن يقول فيه كلمة حسنة مع أن الكتابين متشابهان في الموضوع والمؤلفان في التفكير والشعور وبالرغم مع ذلك أن الرافعي هو شرقي وجوت غربي ولكنه هو محمود مع أنه غربي وهو مذموم مع أنه شرقي وعربي.

يقول بهذا الصدد ضيف الله : اعتقد أن وراء تهجم الدكتور طه حسين على الرافعي وكتابه لا يرجع إلى ما يتعلق بالشرق أو الغرب أو المبادئ العامة، وإنما يرجع إلى مسألة شخصية، وهي أن الرافعي عملاق في الأدب، بأسلوبه وبيانه وفصاحته، والدكتور طه عملاق في الأدب أيضاً لأسلوبه وبيانه وطريقة كتابته. غير أنهما يختلفان في المبدأ والغاية. فالرافعي من أنصار القديم ويسعى أن يكون له حامياً، والدكتور طه حسين من أنصار الجديد ويسعى أن يكون زعيمه. ومتى انتصر أحد المذهبين انتصر زعيمه وسقط الزعيم الآخر بمذهبه إلى حيث لا يسمح له إلا أنين ضئيل يخبر انه كان يوماً ثم اختفى.

سعى الدكتور طه هذا السعي ليسقط الرافعي ومذهبه، ويبقى هو الزعيم الوحيد في دولة الأدب، وهذا هو ما دعاه إلى أن يحطم خصمه الرافعي بكل الطرق".(34)

السحـــــاب الأحمـــــــر

يقول الرافعي : "في هذا الكتاب من المرأة حلو لذيذ يوكل منه بلا شبع، ومن المرأة مرّ كريه يشبع منه بلا آكل".(35)

أصدر الرافعي هذا الكتاب بعد تأليف رسائل الأحزان في آنسة مي زيادة عام 1924م، وبحث فيه فلسفة الغضب والبغض، كما يقول سعيد العريان : "يقوم السحاب الأحمر على سبب واحـــد، حول فلسفة البغض وطيش الحب، ولؤم المرأة".(36)

والكتاب يشتمل على تسعة فصول وهي (1) القمر الطالع (2) النجمة الهاوية – طائفة من الخواطر في طائفة النساء (3) السجين (4) الربيطة (5) المنافق (6) الصغيران (7) الشيخ علي (8) الشيخ أحمد (9) الشيخ محمد عبده.

وفي الفصل الأول يتحدث الرافعي عن حبيبته الأولى من لبنان، يصف حسنها وتأثيرها في النفس، ويذكر علاقته بها التي كانت أجمل من مي زيادة في صورتها وسيرتها. يقول الرافعي : "رأيت فتاة عرفتها قديماً في ربوة من لبنان، ينتهي الوصف إلى جمالها ثم يقف. كنت أرى الشمس كأنما تجري في شعرها ذهباً، وتتوقد في خدها ياقوتا، وتسطع في ثغرها لؤلؤة. وكنت أرى الورد الذي يزرعه الناس في رياضهم، فإذا تأملت شفتيها رأيت ورقتين من الورد الذي يزرعه الله في جنته. وكانت لها حيناً خفة العصفور، وحيناً كبرياء الطاؤوس ودائماً وداعة الحمامة المستأنسة".(37)

اختار الرافعي في الكتاب نهجين مختلفين بأسباب مهما كانت : أحدهما يتسم باللين والأناة والآخر بالثورة والغضب.

والكتاب يشتمل على فصول شتى، لا تجمع بين موضوعاته إلا الفكرة العامة التي هي البحث عن مشاعر الإنسان الذي بلغ مرحلة الشعور والإحساس أو مرحلة التفكير والتأمل".(38)

ويتحدث في الكتاب عن كل نوع من هذه الأنواع البشرية المختلفة الألوان والنزعات والمشاعر، بأسلوب وصفي يشخص الداء ان ثمة داء كالفصل الذي افرده (للربيطة) و (المنافق).

وهدف الرافعي من كل ذلك، أن يضع للحب أسسا صحيحة يسير عليها كل امرئ حسب ما هي في الأخلاق والشرائع، لا كما هي في خيال الشباب وعواطفهم.

أوراق الـــــورد

ألفه الرافعي لتتمة الكتابين السابقين : "رسائل الأحزان" و "السحاب الأحمر" عام 1931م عالج فيه قضايا العلاقة بين الرجل والمرأة و فلسفة الجمال والحب.

يقول الرافعي عنه في مقدمة الكتاب: "هذا الديوان من الرسائل، تكملة على كتابين خرجا من قبل، وهما "رسائل الأحزان" و "السحاب الأحمر" فجملة آرائنا في فلسفة الجمال والحب وأصافهما هي في هذه الكتب الثلاثة".(39)

والكتاب يشتمل على رسائل كتبها إلى الآنسة مي زيادة مثل الكتابين السابقين، يناجي بها محبوبته في خلوتها، ويتحدث بها إلى نفسه.

وما كان سبب تأليفه الحب والغرام من مي زيادة بل كانت غايته اختراع هذا المنهج الجديد في اللغة العربية، والدفاع عنها. و "في تاريخ الأدب العربي كله لا توجد رسالة كتبت من هذا الطراز، على كثرة كتاب العربية وكتبها، وعلى ما أبدعوا في فنون الترسل، وعلى أن هذه اللغة من أوسع لغات الدنيا فيما خصت به المرأة، وما أوقعته على صفاتها، وما أفاضته على العاطفة إليها، وما حفلت به من ألفاظ معانيها، حتى لو أمكن أن ترسل لغات الأمم ألفاظها تستبق في المعاني النسائية، لما كان السبق إلا للألفاظ العربية ولا أوفى على الغاية إلا المعجم العربي وحده".(40)

يبدأ الكتاب بمقدمة بليغة في الأدب يذكر فيها عن تاريخ رسائل الحب منذ البداية إلى عصره بأسلوب خاص، وأحاط فيه وسعة الاطلاع والمعرفة من علوم اللغة العربية وآدابها لا تعرفها لغيره. وبعد هذا التحقيق الدقيق يقول في نهاية المقدمة: "فانت ترى ان الأدب العربي قد انطوى على محجوبة من هذا الفن بقيت في الغيب إلى عهدنا هذا، ونرجو من فضل الله أن تكون كتبنا الثلاثة قد أظهرتها واستعلنت بها، وان تقول العربية اذا تواصفوا كتب هذا الباب في بيان اللغات الأخرى، "هاؤم اقراؤ كتابية".(41)

ويقول عن تسمية بهذا الاسم "أوراق الورد" قال : "ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها فقال لها، "وضعتها رقيقة نادية في صدري و لكن على معان في القلب كأشواكها ... فاستضحكت وقالت فإذا كتبت يوماً معاني الأشواك فسمّها "أوراق الورد" وكذلك سماها".(42)

الـــــرافـــعـي النـــــاقـــــد

عاش الرافعي في عصر كثر فيه الأدباء والعلماء من ذوي الاتجاهات المختلفة والأفكار المتنوعة. وانقسم هؤلاء الأدباء والباحثون إلى فئتين كبيرتين – القديم والجديد – دعا طه حسين وأنصاره الناس إلى تجديد اللغة العربية في الأفكار والأسلوب، وقام الرافعي مع أنصاره ضدهم مدافعاً بقوة عن قيمة اللغة العربية. وبدأت بين الأديبين الكبيرين المعارك الأدبية التي اشتغلت إلى وفاة الرافعي. كتب الرافعي في هذه الفترة كتابين في النقد ضد طه حسين والعقاد، وهنا أنا أقوم بالقاء الضوء على هذين الكتابين الشهيرين – "تحت راية القرآن" و "على السفود".

تحت رايـــة القـــرآن

هذا الكتاب يحتوي على مقالات تفرّقت أسبابها، وفيه أيضاً بعض المقالات التي لم يكن للرافعي يد فيها، وانما تلقاها من أنصاره أو جمعها من مختلف الصحف والجرائد ليدعم بها آراءه.

يدور الكتاب حول النزاع بين المذهبين الأدبيين – القديم والجديد – ونقض آراء الدكتور طه حسين التي أنكر فيه اصالة الشعر الجاهلي ورماه بالانتحال. ولم يكن في ذلك طه حسين صاحب هذا الرأي. بل كان المستشرقون هم الذين أظهروا الشك في الشعر الجاهلي وأنكروه قبل ذلك.

والكتاب يشتمل على مجموعة من المقالات النقدية نشرها بين فترة 1908 – 1926 في الجرائد المتعددة وأخذ بعضها من أنصاره وجمع كلها في كتاب وأصدره بمناسبة ظهور الكتاب "في الشعر الجاهلي" للدكتور طه حسين عام 1926م.

يرى الرافعي أن في هذا العصر ينبغي للأديب أن يبنى على أسس متينة ويستطيع أن يقف أمام الآداب الأخرى وقفة المتعالي، ويرى أن السبة والضعف التي لحقت بلغتنا في بعض عصورها، ترجع إلى ضعف الكتّاب، لا إلى ضعف اللغة. وعلى هذا الأساس بنى نقده وآراءه في مجابهة أهل التجديد.

يسلك في الكتاب على طريقة منطقية، ينكر آراء المجددين ثم يأتي بالدلائل للردّ على آرائهم ويثبت أن المذهب القديم أقدر وأقوى على إحياء اللغة وبعثها من جديد بعثاً قوياً صحيحاً. ويعترف الرافعي أيضاً بان المجددين ليسوا من الجاهلين، بل هم علماء ولكن مجتلبون ومتأثرون من المستشرقين الذين يرفعون جانب المعنى على جانب اللفظ، إذ هو يقول : "نحن مستيقنون أن ليس في جدال من نجادلهم عائدة على أنفسهم إذ هم لا يضلون إلا بعلم، وعلى بينة، فمن ثم نزعنا في أسلوب الكتاب إلى منحى بياني، نذيره على سياسة من الكلام بعينها".(43)

ويناسب لنا أن نذكر هنا أن تاريخ الخصومات الأدبية بين طه حسين والرافعي يرجع إلى عام 1911م حينما أصدر الرافعي كتابه "تاريخ آداب العرب". كتب الدكتور طه حسين الطالب بالجامعة المصرية وقتذاك في مقال نشرته له "الجريدة" عام 1912". هذا الكتاب الذي نشهد الله على أننا لم نفهمه".(44)

على هذا الأساس نحن نقول أن العلاقة بين الأديبين الشهيرين ما كانت ملائمة، لا منذ ظهر الكتاب "الشعر الجاهلي" كما يزعم بعض الناس، بل يرجع إلى عام 1911م حينما أصدر الرافعي كتابه "تاريخ آداب العرب" ولما ظهر كتاب الدكتور طه "الشعر الجاهلي" فالرافعي كان أول من تنبّه من المعاصرين إلى التلفيق في الروايات الأدبية الخاصة بالشعراء وقصصهم التاريخية. وصار قائد الجند ضد آراء طه حسين، ونقد نقداً لاذعاً على آراء الدكتور من حيث هو يقول :

1- إن المسلمين محوا شعر النصارى واليهود ومنعوا روايتهم خوفاً على الإسلام فمن أجل ذلك لم ينته إلينا من شعرهم شيء.

-2 وأنه لا يوجد شعر جاهلي بل هو مصنوع بعد الإسلام وان هذا الجاهلي لا يستشهد به على القرآن بل القرآن هو الذي يحتج به للشعر.

-3 وأن العصر الجاهلي الذي ضاع شعره قد حفظ لأنّ القرآن الكريم يفصله.

-4 وأن الغزل المروي لإمرئ القيس هو لعمر بن أبي ربيعة.

ولما دافع احمد لطفي السيد مدير الجامعة المصرية عن الدكتور طه حسين فشن عليه هجوماً عنيفاً، اذ هو يقول: "نريد أن نستجير لهذا القلم مناقشة الأستاذ الجليل لطفي بك السيد مدير الجامعة، وهو عقل من العقول النادرة في مصر بل في الشرق كله، يكاد يكون ملهما محدثا إذا كتب أو قرأ أو فكر، وهو كذلك شعاع ساطع من تلك المرآة العلوية التي ترسل على آفاق الدنيا نور الذكاء و النبوغ والفلسفة وقد كنا نحسبه أول من يستجيب لرأينا في وجوب نقد طه حسين وتمييز خطئه من صوابه ورد الرأي عليه فيما لم يصح – فانه يجب أن تكون الجامعة موضع الثقة في علمها ويجب ان تعرف الأستاذ بعلمه لا العلم بأستاذه فان أظهرها إنسان على غلطة أو نبهها إلى زلة بحثت وحققت وسالت أهل الذكر وأهل الفكر ورجعت إلى

كل ذي فطنة، ثم أعلنت ما تنتهي إليه عن خطأ أو صواب بحججه وأدلته ولم تصر ولم تستكبر ذهاباً بنفسها أو ممالاة لأستاذها أو تغطية لعيبها، لأنه إذا كان طه حسين ابن الجامعة البكر فماذا؟"(45)

وقال ينتقد على الجامعة المصرية، إن هذه الجامعة أنشئت للبحث العلمي، لا للعلم نفسه، إذ العلم قليله وكثيره علم، وجيده ورديئه علم، وما صح فيه وما تشابه منه كل ذلك علم، لأنه سببه وغايته والواسطة إليه. والبحث يتناول الباطل كما يتناول الحق، لأنه بحث. ولذلك وضع، وبذلك مادته، فلو أطبق الناس جميعاً على رأي من الآراء أو مذهب من المذاهب، ثم قام استاذ في هذه الجامعة فنقض ذلك الرأي، وذهب خلاف ذلك المذهب، كان له أن يفعل ما وسعه، وان ينقض وان يخالف، وهو مصيب وان اخطأ، وقريب من الحقيقة وان بعد، وعالم وإن جهل".(46)

علي السفّود

يقول عباس محمود العقاد : "انه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان مالا يتفق مثله لكاتب من كتّاب العربية في صدر أيّامها".(47)

أدلي العقاد ذلك الرأي في أدب الرافعي قبل بداية الخصومة التي استغرقت إلى يوم وفاته. وكان سبب هذه المعركة الأدبية الشهيرة "الحديث الذي دار بين الرافعي و العقاد في دار المقتطف، حول حقيقة اعجاز القرآن، وكتاب اعجاز القرآن، وكان للعقاد فيهما رأي غير رأي الرافعي، فكانت غضبة الرافعي الأولى لكرامة القرآن و العقاد ينكر اعجازه، ولكتابه والعقاد يجحد فضله، ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التي رماه بها العقاد حين جبهه بانه افترى كتاب سعد زغلول ونحله إياه في تقريظ اعجاز القرآن ليروّج عند الشعب.(48)

ويقول بهذا الشأن أنور الجندي : "وتبدأ معركة الرافعي مع العقاد منذ صدور "الديوان" للعقاد والمازني وقد تناول العقاد والرافعي وأدبه بالنقد، ثم

استونفت معركة الرافعي مع العقاد بعد صدور كتاب الرافعي "اعجاز القرآن" الذي اثنى عليه سعد زغلول ووصفه بأنه: "كأنه تنزيل من التنزيل أوقبس من نور الذكر الحكيم".(49) أنكر العقاد هذا الاقتباس في حظ الرافعي وقال "ان سعداً لم يكتب هذا الخطاب ولكنك انت كاتبه ومزوّره".(50)

ألف الرافعي هذا الكتاب بدون ذكر اسمه، وإنما رمز إليه بعبارة "إمام من أئمة الأدب العربي، والكتاب يشتمل على مجموعة من المقالات النقدية عن العقاد وآرائه. وقام إسماعيل بنشرها في مجلة "العصور" في فترة ما بين عام 1929 - 1930م دون أن يذكر اسمه، ثم قام المؤلف بجمعها وطبعها بعنوان "السقود"، وكتب لها اسماعيل مظهر مقدمة لها، ذكر فيها غايته وغاية المؤلف بقوله: "ونقدّم بهذه المقدّمة تعريفاً لما قصدنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التي اعتقد بانه لم ينسج على منوالها في الأدب حتى الآن وعسى ان يكون السقود مدرسة تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم ومثالاً يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة".(51)

ولم يذكر الرافعي فيه اسمه، لعلّه بأمرين: أحدهما أن العقاد كان له سمعة طيبة لدى الأدباء وعامة الشعب وكان العقاد يومئذ كاتب الوفد الأول، و الوفد هو الأمة كلها، وبهذا السبب كان العقاد عند الناس إمام الكتّاب وأمير الشعراء ومن جهة أخرى أن الحكومة آنذاك كانت حكومة وفدية وله فيها أثر ونفوذ. كما يقول الرافعي بهذا الشان": "سيصدر الكتاب وليس عليه اسمي، مراعاة للظروف الحكومية الحاضرة".(52)

والكتاب يشتمل على نوعين من النقد، أحدهما موضوعي، والثاني عاطفي وغاية الرافعي بهذا النوع العاطفي كانت ذاتية كما يكتب ضيف الله: "مما نقدم من الآراء، نذكر ان السبب الذي دفع بالرافعي إلى تاليف هذا الكتاب، وبهذا النوع العاطفي من النقد، كان ذاتياً. ويؤكد هذا الرأي قول صدر من الرافعي نفسه، فقد كتب مقالاً في مجلة "العصور" لم يذكر فيه شيئاً عن إيمان العقاد بالقرآن واعجازه،

وكل ما ذكره أن حديثاً دار بينهما حول الكتاب انتهى إلى ما يدل على حسد العقاد، وخاصة بعد أن عرف أن سعد زغلول قال فيه "كأنه تنزيل من التنزيل".(53)

ولاشك في أنّ الكتاب آية من آيات النقد اللغوي ونادرة من نوادر الكتب النقدية. وهذه الخصائص تدل على أنّ المؤلف كان له يد طولى في مجال العلم والأدب ودقة التعبير وسعة الاطلاع وعمق التفكير واستعمال الألفاظ حسب المكان والاقتضاء ولكن مع ذلك توجد فيه العيوب والأخطاء من ناحية استعمال الألفاظ النادرة والتراكيب المبهمة.

يقول سعيد العريان بهذا الشأن: "والحق الذي اعتقده، أن في هذا الكتاب – على ما فيه – نموذجاً في النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصر بالعربية وأساليبها، ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليقاً بان يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه الاّ ادمُّ الصور واقبح الألوان بما فيه من هُجر القول ومر الهجاء".(54)

والجدير بالذكر هنا أن نذكر نموذجاً من نقد الرافعي.

يقول العقاد:

يا ليت لي ألف قلب تغنيك عن كلّ قلب

وليت بي ألف عين تراك من كل صوب

يقول الرافعي في تعليقه على البيت الأول: "إنّ لحبيب العقاد ألف عاشق، فاذا كان لا بد له من ألف عاشق، ولا يقنع إلاّ بألف، فالعقاد يتمنى أن يكون له ألف قلب ليقوم وحده مقام الألف... ثم يريد أن يكون له ايضا الف عين لينظره من الف جهة، فاذا صحّ ان الحبيب... يجد له الف قلب تحبه، فهل يصح في العقل، انّ الجهات الف؟ أم يظن العقاد أن تخرج عينه وتجري وراء الحبيب".(55)

معـــارك الـرافـعـي الأدبيـة

لقد عاش الرافعي في عصر كثر فيه الأدباء والعلماء من ذوي الاتجاهات المختلفة. فنجد في هذا العصر شاعرا مثل البارودي وحافظ وشوقي ومصلحا مثل

محمد عبده و جمال الدين الأفغاني وكاتبا مثل جبران خليل جبران والعقاد وطه حسين، عاصر الرافعي هؤلاء العبقريات العظام، وعرف اتجاهاتهم الأدبية والفكرية والاجتماعية. فاخذ منهم ما أمكن، فأضافه في فكره وعلمه وأدبه حتى أصبح شاعراً ومورخاً وأديباً و باحثا وناقداً.

انقسم الأدباء والباحثون عند بداية الحرب العالمية الأولى إلى فئتين كبيرتين – القديم والجديد - ، ودارت بينهما معركة مفاهيم الثقافة ومعركة مفاهيم الأدب. "وكان ابرز أعلامها في معسكر المحافظين أحمد زكي باشا وفريد وجدي والرافعي ومحمد أحمد الغمراوي وشكيب أرسلان ورشيد رضا، وفي معسكر المجددين: العقاد والمازني وزكي مبارك وهيكل وطه حسين وسلامة موسى".(56)

ومعركة مفاهيم الثقافة قد بدأت منذ وقت مبكر منذ عام 1914م مع بداية الحرب العالمية الأولى. أما معركة "مفاهيم الأدب" بدأت حول الأسلوب عام 1923 بين الرافعي وطه حسين ثم تناولت غاية الأدب، فاتصلت بالأسلوب والمضمون، والفن للفن والفن للمجتمع. ومذهبي الأدب: بين الرافعي والعقاد، والتراث القديم والنقد والتنريظ ومعارك مفاهيم اللغة".(57)

حينما دعا طه حسين وأنصاره الناس إلى تجديد اللغة العربية ومفاهيم الأدب في الفكر والأسلوب فقام الرافعي مع أنصاره ضدهم مدافعاً بقوة عن قيمة اللغة العربية وآدابها. وخاض مع أنصاره المعارك الأدبية ضد طه حسين والعقاد وسلامة موسى وزكي مبارك وعبد الله عفيفي: "وكانت حجة المدافعين حماية اللغة العربية من أعجمية العامية التي كانت هدف الدعوة التي أثيرت واستشرت، غير ان المعركة انكشفت عـن تقارب في الأساليب وهو ما أطلق عليه الأسلوب التلغرافي".(58)

وكان الرافعي بين المحافظين أشد متعصباً في الدين الإسلامي والثقافة العربية وأشد نقداً على المجددين من ناحية آرائهم حول الأدب العربي. يقول سعيد العريان عن نقده ومنهج نقده: "ولكنه هو –يرحمه الله- الذي ألبّ على نفسه هذه العداوات حياً وميتاً، لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان، لا يعرف المداراة ولا يصطنع

الأدب في نضال خصومه. وكانت فيه غيرة و إعتداد بالنفس، وكان فيه حرص على اللغة، من جهة الحرص على الدين، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء: لا منفعة فيهما معاً الا بقيامها معاً. وكان يؤمن بأنك لن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة"... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً، يهاجم خصومه على طريقة: يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع".(59)

وقد خاصم معارك أدبية عديدة في مطلع القرن العشرين مع الأدباء الكبار والجامعة المصرية حول طريقة تدريس الأدب العربي. وكانت له خصومات مع سلامة موسى حول ميراث المرأة في الإسلام وجولات أخرى مع عبد الله عفيفي وزكي مبارك حول تجديد الأدب العربي. أما أبرز معارك الرافعي الأدبية التي خاضها مع "طه حسين" و "العقاد" كانت أشهر المعارك الأدبية في القرن العشرين. يقول سعيد العريان: "على أن أشهر هذه المعارك شهرة هو ما كان بينه وبين طه حسين، وبينه وبين العقاد، بل لعلها أشهر وأقسى ما في العربية من معارك الأدب، وإنها لجديرة بان يؤرخ بها في تاريخ النقد كما كان العرب يورخون بأيامهم".(60)

والجدير بالذكر لنا أن نذكر أن الرافعي لم يقلد أحداً من الأقدمين كما اتهمه بعض الأدباء من عصره. وحقيقة الأمر هي أنه قد احتذى أساليب الأقدمين في النسق اللغوي، ولم يخرج عن قاعدة اللغة العربية. فهو يحافظ على اللغة ونسقها الأصيل، ثم يقوم بالتجديد في ألفاظها وأساليبها بما يساعد على النمو والازدهار، ويناسب التطور والذوق العربي المعاصر. ويقول بهذا الصدد أحمد حسن الزيات: "فاذا قيل لك ان الرافعي قديم الأسلوب في التفكير والتعبير، فاحمل ذلك على الحسد الذي لا حيلة فيه، أو على الجهل الذي لا حكم معه".(61)

ويقول شوقي ضيف: "على أن الرافعي حين نبحث فيه ونعرض آثاره على الدرس نجده يحاول التجديد، فقد حاول في مقالاته وكتبه ان يعبر عن معان حديثة في العواطف وفي الجمال والحب والبغض، وكان يتعمق في هذه المعاني تعمقا بعيداً، فتسرب الغموض إلى بعض أساليبه مما جعل الكثرة من الشباب تنصرف

عنه إلى خصومه المجدّدين الذين استطاعوا بثقافتهم العربية والغربية أن يعبروا عما في نفوسهم وعقولهم تعبيرا حرا سهلاً، لا يتقيدون فيه بالفاظ القدماء وأساليبهم، وانما يحتفظون باطار لغوي عام ، ثم يكيّفون اللغة بعد ذلك بأشكال مختلفة فتارة ينقلون إلينا بعض الأساليب الغربية، وتارة يخترعون بعض الأساليب اختراعاً".(62)

كما رأينا ان الرافعي قد أتهم بتقليد الأقدمين في أساليبهم من قبل المجددين، ولكنه لم يتهم أحداً من معاصريه له حتى خصومه بالضعف في اللغة، بل شهد له كل المعاصرين حتى خصمه العنيد طه حسين بأنه يلم باللغة العربية الماماً عميقاً. يقول طه حسين بهذا الصدد: وانما الحق أن الذين يعلمون هذه اللغة كما يعلمها الأستاذ الرافعي قليلون جداً، وأحسبهم يحصون. والحق ان الذين يظهرون على أسرار هذه اللغة ودقائقها كما يظهر عليها الأستاذ الرافعي قليلون جداً واحسبهم يحصون أيضاً".(63)

معركة الرافعي مع طه حسين

قبل ان نخوض في هذا البحث يناسب لنا أن نذكر ان الرافعي كان متعصباً في الدين الإسلامي والثقافة العربية. منذ نعومة اسفاره، لأن بيته التي نشأ فيها وغرس فيها الروح الإسلامي والثقافة العربية. وكان ينتمي من أسرة، تعرف بحب العلم وتربية أبنائهم عليه وعشق الثقافة الإسلامية وتعويد أبنائهم على التعلق بها ولذا توجد السمة الإسلامية في نقده وثقافته و ابداعه، ويكون جميع الأحيان مستعداً للدفاع عن الإسلام واللغة العربية والثقافة العربية وينقد بدون خوف ومداهنة على الأدباء الكبار مثل العقاد والدكتور طه حسين وغيرهما.

ومعارك الرافعي الأدبية مع طه حسين كانت من أبرز المعارك التي خاضها الرافعي ضد المجددين، وتبدأ المعركة حينما أصدر الرافعي كتابه "تاريخ آداب العرب" فكتب طه حسين الطالب في الجامعة المصرية حينذاك ينقده ويقرر أنه لم

يفهمه، ثم يقرر هذا المعني ثانية في نقد "حديث القمر" وثالثة في "رسائل الأحزان".(64)

فثار الرافعي ثورة عنيفة ضد الدكتور طه حسين وتحداه ان ياتي بمثل أسلوبه و ردّ عليه ساخراً بقوله: ولقد كتبت رسائل الأحزان في ستة وعشرين يوماً، فاكتب أنت مثلها في ستة وعشرين شهراً، وانت فارغ لهذا العمل، وأنا مشغول بأعمال كثيرة، لا تدع لي من النشاط ولا من الوقت إلا قليلاً. وها أنا أتحداك أن تاتي بمثلها أو بفصل من مثلها".(65)

واشتدت المعركة وزادت عنفا حينما أصدر الدكتور طه حسين كتابه "الشعر الجاهلي" فكان الرافعي أول من تنبه من المعاصرين إلى التلفيق في الروايات الأدبية الخاصة بالشعراء وقصصهم التاريخية. وكان له هذا الكتاب فرصة طيبة للانتقام منه، ونقد نقداً لاذعاً على آرائه في مقالات عديدة نشرتها جريدة "كوكب الشرق" أكثرها. يقول الكاتب أنور الجندي بهذا الشأن: "وجد الرافعي فرصته للانتقام من طه حسين بالحق فكان المصارع الأول في هذه الحركة، وحمل عليه في مقالات متعددة في جريدة "كوكب الشرق" مستغلا جريدة الوفد، والوفد خصم الأحرار الذي كان طه حسين من أبرز كتابه. وكانت عقدة الخصومة عند الرافعي هي محاربة مذهب التجرد من الدين لتحقيق مسألة من مسائل العلم أو مناقشة رأى من آراء الفكر أو رواية من روايات التاريخ".(66)

ويقول أيضاً: "ولا شك ان المعركة بين الرافعي وطه حسين هي معركة خلاف في الرأي وأسلوب الفكر ومنهج الفهم للأدب والدين واللغة، وان الرافعي كان بالنسبة للمجددين سيفاً مصلتا يحسب له ألف حساب".(67)

الحـــــواشـــــــــي

(1) الرافعي : "وحي القلم"، (دار الكتاب العربي، بيروت) ج3، ص. 320.

(2) ديوان الرافعي، بحوالة نثر مصطفى صادق الرافعي لضيف الله، ص. 32.

(3) العريان : "حياة الرافعي" ص. 51.

(4) نفس المصدر، ص. 46

(5) العريان : "حياة الرافعي" ص. 46.

(6) انيس المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ص. 113 – 114.

(7) العريان : "حياة الرافعي" ص. 90.

(8) نفس المصدر: ص. 83

(9) ضيف الله: "نثر الرافعي" ص. 49.

(10) نفس المصدر ص 67

(11) الرافعي: "تاريخ آداب العربي" دار الكتاب العربي، بيروت، ج1، ص. 28

(12) العريان : "حياة الرافعي" ص. 90.

(13) ضيف الله : نثر الرافعي، ص. 59.

(14) الرافعي : "اعجاز القرآن والبلاغة النبوية" (دار الكتاب العربي، بيروت) 1974. ص. 20.

(15) ضيف الله : نثر الرافعي، ص. 78.

(16) الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج3، ص. 12.

(17) نفس المصدر، ص. 12

(18) ضيف الله: نثر الرافعي، ص. 128.

(19) العريان : "حياة الرافعي" ص. 74.

(20) ضيف الله : نثر الرافعي، ص. 140.

(21) نفس المصدر، ص. 130.

(22) الرافعي : كتاب المساكين" (دار الكتاب العربي، بيروت، 2000) ص. 8.

(23) ضيف الله : نثر الرافعي، ص. 146

(24) الرافعي : "وحي القلم"، ج3 ص. 42.

(25) شوقي : الأدب العربي المعاصر، ص. 242.

(26) الرافعي : كتاب المساكين، ص. 37.

(27) نفس المرجع: ص. 10.

(28) ضيف الله : "نثر الرافعي"، ص. 202.

(29) الرافعي : رسائل الأحزان، (مكتبة التجارية الكبرى، مصر 1958) ص. 11.

(30) ضيف الله : "نثر الرافعي، ص 159.

(31) نفس المرجع، ص. 159.

(32) نفس المرجع، ص. 160.

(33) نفس المرجع، ص. 161.

(34) نفس المرجع، ص. 162.

(35) العريان : "حياة الرافعي" ص. 135.

(36) العريان : "حياة الرافعي" ص. 133.

(37) ضيف الله : نثر الرافعي، ص. 191.

(38) الـــرافـــعي: أوراق الورد، (مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1952) ص. 12

(39) نفس المصدر. ص 30

(40) نفس المصدر. ص 28

(41) نفس المصدر. ص 30

(42) الرافعي : "تحت راية القرآن" (دار الكتاب العربي، بيروت) ص. 3

(43) العريان: حياة الرافعي، ص 68

(44) الرافعي : تحت راية القرآن، ص. 191

(45) نفس المصدر. ص 123

(46) العريان : "حياة الرافعي" ص. 183.

(47) نفس المصدر. ص 190

(48) أنور الجندي: "المعارك الأدبية في مصر منذ 1941 - 1939"
مكتبة الانجلو المصرية عام 1983 ص. 428.

(49) نفس المصدر. ص 429

(50) يوسف كون: اعلام النثر، ج3 ص 28

(51) ضيف الله : نثر الرافعي، ص. 23

(52) نفس المصدر. ص 106

(53) العريان : "حياة الرافعي، ص. 192

(54) ضيف الله : نثر الرافعي، ص. 119

(55) الجندي: المعارك الأدبية، ص. 5

(56) نفس المصدر. ص 10

(57) نفس المصدر. ص 10

(58) العريان: "حياة الرافعي" ص. 141.

(59) نفس المصدر. ص 149

(60) أحمد حسن الزيات: "وحي الرسالة" مطبعة الرسالة القاهرة، 1949 ج3 ص. 435

(61) شوقي ضيف: "الأدب العربي المعاصر، ص. 194

(62) الدكتور طه حسين: "حديث الأربعاء"، (دار المعارف، مصر) ص. 122

(63) العريان : حياة الرافعي، ص. 151

(64) الرافعي: تحت راية القرآن، ص. 438.

(65) الجندي: المعارك الأدبية، ص. 439.

(66) الجندي: المعارك الأدبية، ص. 439.

البـــاب الثـــالث

وحـــي القلـــم

الفصل الأول : القصـــة، المقـــالـــة، النـــقـد

الفصل الثاني : القيـم الإسلاميـــة، القيـــم العربـية، قضايـا المرأة والمجتمع

الفصـــــل الأول

يشتمل الكتاب على مجموعة من المقالات الإسلامية والعربية والاجتماعية والنقدية والقصص الإسلامية المستخرجة من مطاوي التاريخ العربي ومنها ما ابدعه خيال المصنف أيضاً وقد نشر المصنف هذه المقالات في مختلف المجلات والصحف، قبل أن يقوم بنشرها في كتاب مبسوط. وأكثر المقالات نشرها المؤلف في مجلة "الرسالة" التي كانت تنشر له مقالات أسبوعية في فترة ما بين 1934م – 1937م. ثم قام الرافعي بجمعها وترتيبها بنفسه بشكل كتابي مبسوط باسم "وحي القلم" لأنه كان لكل فصل أو مقالة أو قصة من الكتاب سبب أوحي إليه موضوعها وأملي عليه القول فيها.

والكتاب يشتمل على ثلاثة أجزاء، نشر المؤلف الجزئين الأولين منها بنفسه في حياته، أما الجزء الثالث، فقد قام بترتيبه ونشره تلميذه الرشيد سعيد العريان، لأن المنية لم تمهله أن ينشر كتابه في ثلاثة أجزاء كاملة. ومن الممكن أن نقسم هذه المقالات من الأنواع المختلفة في ثلاثة فنون، وهي: القصة، والمقالة، والنقد، وكل من هذه الفنون الثلاثة مليئة بالقيم الإسلامية والعربية وقضايا المرأة والمجتمع المصري خاصة والعربي عامة، وسنتحدث في هذا البحث عن هذه الفنون الأدبية الثلاثة والقيم الإسلامية والعربية وقضايا المرأة والمجتمع.

القـــصـــة

لم يكتب الرافعي القصة قبل أن يتصل بمجلة "الرسالة" إلا قصتين : "الدرس الأول في علبة كبريت" و "عاصفة القدر"، ولم يعن أيضاً بهذا الفن كما عنى بالمقالة لأنه اعتبرها نوعاً من الأدب الرخيص. وقد كتب هاتين القصتين بدافع المسابقة. ففي

سنة 1905م أعلنت مجلة "المقتطف" المسابقة بين الأدباء جائزة لمن ينشئ أحسن قصة مصرية."فأنشأ الرافعي قصة الأولى وكان عنوانها" الدرس الأول في علبة كبريت" ولم يحصل بها على جائزة ، وقد أعاد على كتابة القصة من جديد، و ذلك بعد بثلاثين سنة بعنوان "الشطر الأخير من القصة".(1)

وفي أكثر الأحيان لا يهتم بعرضها على طريقة فنية ذات عقدة تتشوق النفس إلى حلها، كما يقول سعيد العريان :"ولم يكن يعرف عن فن القصة شيئا يحمله على معا لجتها ويغريه على العناية بها."(2)

وتكون القصة عنده مقال أو حديث يدور حول شخص أو حادثة من الحوادث التي تحدث في حياة الإنسان . وطريقة بيانه في قصصه تختلف عن طريق كتاب القصص الآخرين تكون غايته منها العظة و الحكمة و الاعتبار. وقد أصاب سعيد العريان إذ وصف منهجه في كتابة القصة فقال: "فالقصة عنده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته في أسلوب جديد، فهو لا يفكر في الحادثة أول ما يفكر، ولكن في الحكمة و المغزى و الحديث والمذهب الأدبي ثم تأتي الحادثة من بعد، فكان إذا هم أن ينشئ قصة من القصص، جعل همه الأول أن يفكر في الحكمة التي يريد أن يلقيها على السنة التاريخ ـ على طريقته في إنشاء المقالات ـ فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع و انتهي في تحديد الفكرة إلى ما يريد، كان بذلك قد انتهي إلى موضوعه فليس له إلا أن يفكر في أسلوب الأداء، وسواء عليه بعد ذلك أن يودي موضوعه على طريقة المقالة أو على طريقة القصة، فكلاهما ينتهيان به إلى هدف واحد . فإذا اختار أن تكون قصة تناول كتابا من كتب التراجم الكثيرة بين يديه فيقرأ منها ما يتفق، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ، فيدرس تاريخه وبيئته و خلانه و مجالسه ،ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة".(1)

وتوجد جميع هذه الأشياء المذكورة في قصصه التاريخية، مثل "قصة زواج" و "رويا في السماء"، و "زوجة إمام" و "بنته الصغيرة" و "السمكة" و "الأسد" و "اليمامتان" وسواها .

ففي قصة "اليمامتان" التي بدأ بها الرافعى كتابه يتحدث عن البطل الجليل عمرو بن العاص وواقعته التي وقعت مع أرمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر، وفي القصة توجد أخلاق العرب و ثقا فتهم ، وافتتان القبط بمزايا العرب والإسلام وحب المرأة في القصة خيالية افتعلها ليبلغ بها ما في نفسه من معاني الحب . و في الختام يذكر المؤلف نشيد اليمامة. و وضع الرافعي لهذه القصة أبطالها، و أختار لهم من الأسماء ما يلائم مسمياتهم . فيسمى الراهب شيطا، والجارية مارية، و ابنة المقوقس أرمانوسة لأن هذه الأسماء و ردت التاريخ كذلك. فإذاً يأخذ الفكرة من القصص التاريخية القديمة و يصوغها بألفاظه و أسلوبه الجديد.

ابتدأ القصة بنص نقله عن الواقدي ، وهو: "جاء في تاريخ الواقدي "أن المقوقس" عظيم القبط في مصر، زوج بنته" أرمانوسة" من"قسطنطين بن هرقل"وجهزها بأموالها حشما لتسير إليه حتى يبنى عليها في مدينة قيسارية، فخرجت إلى بلبيس و أقامت بها و جاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً ، وقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس، وانهزم من بقي إلى المقوقس ، و أخذت أرمانوسة و جميع مالها ،و اخذ كل ما كان للقبط بلبيس ، فأحب عمر و ملاطفة المقوقس فسير ابنته مكرمة في جميع مالها ، (مع قيس بن العاص السهمي) فسُر بقد و مها."(4)

ثم يقول الرافعي : "هذا ما أثبته الواقدي في روايته ، ولم يكن معنيا إلا بأخبار المغزى والفتوح ، فكان يقتصر عليها في الرواية ، أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن : كانت لأرمانوسة وصيفة مولدة تسمي (مارية)، ذات جمال يوناني اتمته مصر و مسحته بسحرها، فزاد جمالها على أن يكون مصرياً ونقص الجمال اليوناني أن يكون ، فهو أجمل منهما."(5)

ولا يزال يذكر القصة بأسلوب خيالي جذاب ، بدون أي إشارة واضحة تشير إلى أصلها التاريخي حتى يظن القاري، الذي ليس له علم بأصلها التاريخي أنها قصة حقيقية في جميعها.

و يختتم القصة بنشيد اليمامة

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.

تركها الأمير تصنع الحياة، و ذهب هو يصنع الموت!

هي كأسعد امرأة، تري و تلمس أحلامها.

إن سعادة المرأة أولها و آخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض.

أيتها اليمامة، لم تعرفي الأمير و ترك لك فسطاطه .

هكذا الحظّ: عدل مضاعف في ناحية، و ظلم مضاعف في ناحية أخرى

أحمدى الله ايّتها اليمامة، أن ليس عند كم لغات و أديان،

عندكم فقط: الحب والطبيعة و الحياة.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها،

يمامة سعيدة، ستكون في التاريخ كهد هد سليمان،

نسب الهدهد إلى سليمان، و ستنسب اليمامة إلى عمرو.

واهاً لك يا عمرو! ما ضرّ لو عرفت (اليمامة الأخرى).(6)

و في ضوء ما ذكرنا يتناول قصة سعيد بن المسيّب، وموضوعها "قصة زواج" و "فلسفة المهر" هي أيضا كسابقتها، قصة تاريخية استوحاها الرافعي من بطون الكتب التاريخية، فهو يعرف سعيد بن المسيب، و يصف زهده و أخلاقه و منزلته عند أهل المدينة و المسلمين من جميع أقطار البلاد العربية، و يعبّر عن العصر الذي كان يعيش فيه سعيد بن المسيب.

تبدأ القصة بقول رسول الخليفة يقف على رأس الشيخ متعجبا: "ويحلك يا أبا محمد لكان دمك و الله من عدوّك، فهو يفور بك لتلجّ في العناد فتقبل، وكأني بك و الله بين سبعين قد فغرا عليك، هذا عن يمينك و هذا عن يسارك، ما تفر من حتف إلا إلى حتف، ولا ترحمك الأنياب إلا بمخالبها.

ثم يذكر ما كان منه يوم جاءه رسول الخليفة الأموي عبد الملك بن مر وان يخطب ابنة الإمام لولى عهده و ليد بن عبد الملك و يعرض عليه أموالاً طائلة في المهر، فرفض الإمام طلبه و عليه شابّا فقير أمن تلاميذه عبد الله بن أبى وداعة. و لمّا سأله الناس مستغربين بعد الزواج منه كيف فضّل شابا فقير أمن طلاب العلم على ابن

عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين فاجاب قائلاً: "أما إني - علم الله - ما زوجت ابنتي رجلاً أعرفه فقيرا أو غنيا، بل رجلا اعرفه بطلا من أبطال الحياة، يملك اقوي أسلحته من الدين و الفضيلة. وقد أيقنت حين زوجتها منه أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلة نفسه، فيتجانس الطبع و الطبع، ولا مهنأ لرجل و امرأة إلا أن يجانس طبعه طبعها، و قد علمت و علم الناس أن ليس في مال الدنيا ما يشتري هذه المجانسة، و إنها لا تكون إلا هدية قلب لقلب يأتلفان و يتحابان.

ثم قال الإمام: و أنا فقد دخلت على أزواج رسول الله (صلى الله عليه و سلم) و رأيتهن في دور هن يقاسين الحاة، و يعانين من الرزق ما شح ذره فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة، و هن على ذلك، ما واحدة مهن إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها، وما فقرهن إلا كبرياء الجنة نظرت إلى الأرض فقالت لا.(7)

وفي القصة توجد جميع الأشياء التي تتعلق بالأخلاق الإنسانية والروح الإسلامية و مزاياها. فهو يرفض خطبة الخليفة الأموي لابنته دون أن يقيم للأموال الطائلة في المهر والجاه و الحشمة وزنا التي عنده وعند الأمراء و الحكماء. ويرد على طلب رسول الخليفة بما هو مناسب في حق الإنسانية والمسلمين و يكون منارة النور والهداية لهم و الأجيال الآنية. كما هو يقول: " أما إني مسئول عن ابنتي، فما رغبت عن صاحبك إلا في مسئول عن ابنتي. و قد علمت أنت أن الله يسألني عنها في يوم لعل أمير المؤمنين و إبن أمير المؤمنين و ألفا فهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها و أوباشها و دعارها و فجارها. يخرجون من حساب الفجرة إلى حساب القتلة، و من حساب هؤلاء إلى الحساب على السرقة و الغصب، إلى حساب أهل البغي، إلى حساب التفريط في حقوق المسلمين، ويخف يومئذ عبيدها و أوباشها و دعارها و فجارها في زحام الحشر، و يمشى أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما، و عليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب و حقوق العباد.

فهذا ما نظرت في حسن الرعابة لابنتي، لو لم أضنّ بها على أمير المؤمنين و ابن أمير المؤمنين لاوبقت. لا والله ما بيني و بينكم عمل، و قد فرغت مما على الأرض فلا يمر السيف مني في لحم حي".(8)

وفي قصة "سمو الحب" يتحدث عن المجتمع المكي الذي تغير بعد عصر الصحابة، و مال شبان قريش إلى حياة اللهو و الترف، و تركوا الحياة التي كان عليها آباؤهم و أجد ادهم من الفقر و البؤس و الأخلاق و التقوى، و كثرت فيها الجوارى و المغنيات، وأقيمت الند وات الغنائية و المجالس الشعرية يشارك فيها شبان قريش. واختار قصتين لموضوع حديثه ـ قصة يوسف عليه السلام التي ذكرها الله في القرآن الكريم والقصة الأخرى هي قصة سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن التي تتعلق بذلك العصر المكي المذكور و يضع لها الأبطال و يختار لهم الأسماء، كما وردت في التاريخ، فالفقيه هو عطار بن أبى رباح، والشاب هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمار. ويزيد بن عبد الملك و المغنية هي سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن. و ياتي بأشياء أخرى تتصل بموضوعه و يقدم من خلا لها صورة المجتمع المكي آنذاك.

والقصة تبدأ بالكلمة التي كان يستعملها الناس بمناسبة المواسم و الأعياد و النوادي ليعلموا الناس إلى الشيء المهم الذي يروق لهم. وهي: "صاح المنادي في موسم الحج:" لا يفتي الناس الإعطاء ابن أبى رباح، و كذلك كان يفعل خلفاء بنى أمية، يأمرون صائحهم في الموسم، أن يدل الناس على مفتي مكة وإمامها وعالمها، ليلقوه بمسائلهم في الدين. ثم ليمسك غيره عن الفتوى، إذ هو الحجة القاطعة لا ينبغي أني يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها، وليس للحج إلا أن تظاهرها و تترادف على معناها.

وجلس عطاء يتحيّن الصلاة في المسجد الحرام، فوقف عليه رجل وقال: يا أبا محمد، أنت أفتيت كما قال الشاعر:

سل المفتي المكي : هل في تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح؟

فقال معاذ الله أن يُذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح!(9)

ثم يتحدث الرافعي عن زهد عطاء بن أبي رباح وغزارة علمه ومنزلته بين الناس وحالة مجلسه. وبهذه المقدمة صنع الرافعي جوّاً ملائماً لحديثه ثم يقصّ القصة

في شكل رواية كما يفعل المؤرخون الثقاة. يقص القصّة على طريقتها في لفظها ونسقها وأسلوبها، فيُكثر فيها التعجب والاستفسار والإنكار والعبرة.

وبعد هذا التمهيد يذكر قصة يوسف عليه السلام مع زوجة حاكم مصر في ضمن تفسير الآية الكريمة" وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك. قال معاذ الله، إنه ربّي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون. ولقد همّت به وهمّ بها لو لا أن رأى برهان ربّي، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء". يفسّر معاني كلّ لفظ حتى يصل إلى كلمة "وغلقت الأبواب" فيستخرج من الصيغة معناً لغوياً قلّ أن ينتبه إليه كاتب أو أديب من حيث هو يقول: "وغلقت الأبواب" ولم يقل أغلقت وهذا يشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيّل القفل الواحد أقفالاً عدّة، وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها في الإغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

"وقالت هيت لك" ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة، متكشفة مصرّحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشدّ اهتياجها وغليانها".(10)

ثم يتحدث الرافعي قصّة سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن، ويصفها بالمغنية الشهيرة والحاذقة الظريفة والجميلة الفاطنة والشاعرة القارئة والمؤرّخة المتحدثة التي لم يجتمع في امرأة مثلها حسن وجهها، وحسن غنائها وحسن شعرها. تقيم لها الندوات الغنائية ويحضر فيها شبان قريش، وقد حضر يوماً من أيامه في ندوتها الغنائية عبد الرحمن بن أبي عمار، يلقبونه بالقسّ لعبادته ونسكه، على دعوة مولاها سهيل بن عبد الرحمن والتماسه، فسقطت المغنية في حبه معه، وانتهت إلى حالة من الجنون حتى عرضت نفسها عليه وقالت : "انا والله احبك، واشتهى أن أعانقك واقبلك، "فردّ عليها عبد الرحمن وقال : "وأنا والله ثم قالت فما يمنعك؟ فوالله إن الموضع لخال، فرد عليها عبد الرحمن وقال : يمنعني قول الله عزوجل: "الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين" فاكره أن تحول مؤدتي لك عداوة يوم القيامة".

إني أرى برهان "برهان ربي" يا حبيبتي، وهو يمنعني أن أكون من سيئاتك وأن تكون من سيئاتي، ولو أحبت الأنثى لوجدتك في كل أنثى، ولكني أحب ما فيك أنت بخاصتك، وهو الذي لا اعرفه ولا أنت تعرفينه، هو معناك يا سلامة لا شخصك".(11)

تبدأ القصة من قصة يوسف عليه السلام وتنتهي بقصة سلامة، كلتاهما تتشابه مع الأخرى، ويختار لهما المكان والزمان والأبطال ما يناسب معهما وكلها تكون مترابطة ومتشابكة مع بعضها البعض.

تروى لنا الكتب التاريخية هذه القصص بالإيجاز والاختصار، ولكن الرافعي يطولها ويقصّ بالتفصيل دون أن تفقد مادتها وروحها كما هو. يقول: " فلا أكتب إلا ما يبعثها حية و يزيد في حياتها و سمو غايتها، و يمكن لفضائلها و خصائصها في الحياة، ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا، ثم إن يخيل إلى دائما أنى رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن و لغتة و بيانه."(12)

المـــقـــالـــة

ليس من الشك أن هذا الفن في صورته الموجودة قد جاء من الغرب مثل الفنون الأخرى، و لكن أصله في اللغة العربية ليس جديداً و يرجع تاريخه إلى العصر العباسي الأول حينما كان يكتب الناس أخيلة أذهانهم و خواطر قلوبهم على الأوراق ويسمونه "الرسالة " كما نحن نرى رسائل الجاحظ و ابن المقفع.

تطورت المقالة بشر و طها و أركانها الموجودة في نهاية القرن التاسع عشر و سبب إنشائها كانت الضرورات و الحاجات العصرية و الصحفية، وما كانت خاصة بطبقة رفيعة بل كانت عامة لجميع طبقات الناس فاعتني كتاب اللغة العربية بها، و كتبوا مقالات سياسية و اجتماعية و أخلاقية، ما كانت في حق البلاد و شعبها. "و كان نتائجه قيام الثورة العرابية. ومن ذلك حين حوكم زعماء هذه الثورة حوكم معهم كتاب المقالة حينئذ، فاختفي عبد الله بن النديم و نفي محمد عبده، و كان قد أبعد

جمال الدين الأفغاني، ولم يصبهم ما أصابهم من ذلك إلا بسبب ما كتبوا من مقالات سياسية."(13)

وهذه الغاية، كانت أمام الرافعي حينما بدا كتابة المقالة المتعلقة بسياسة العرب و المجتمع العربي. و فاق فيها على أقرانه باختيار الموضوع ما يناسب له، و تصويره تصويراً كاملاً أمام الناس و يمتاز في هذا المجال باستبطان عقلي واسع ساعد عليه و سعة إطلاعه على العلوم الإسلامية و الثقافة العربية. فأول شيء يهتم به الرافعي مقالاته هو اختيار الموضوع ليعبر به عن خاطرة قلبه و فكرة ذهنه. وفي مقالاته" نهضة الأقطار العربية " و "ابليس يعلم" و "شباب العرب" و "قصة الأيدي المتوضئة " و "سر القبعة " توجد هذه الفكرة، و يملك الرافعي بها على أذهان القاري و مشاعره، و يكتبها بأسلوب بليغ، يشير إلى الأخطاء الموجودة في المجتمع المصري، و نجد هذا الشيء بكثرة في سلسلة "أحاديث الباشا." ينتقد فيها على رجال السياسة و يصف سياستهم بالمكر والخداع والنفاق و حب الذات الذي لن يكون أبداً في صلاح البلاد و شعبها.

ففي مقالته " الطماطم السياسي يقول: " كان (م) باشا رحمه الله داهية من دهاة السياسة المصرية، يلتوي مرة في يدها التواء الحبل، و يستوي في يدها مرة استواء السيف، ولا يري أبداً إلا منكمشا متحرزا كأن له عدو الا يدري أين هو ولا متي يقتحم علية، ولكنه كثيرهم من الرؤساء الذين كانوا آلات للكذب بين طالب الحق و غاصب الحق ـ يعرف أن عدوه كامن في أعماله.

وكان ذكيّا أريبّا، غير أن ملا بسته للسياسة الدائرة، على محورها، جعلت نصف ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر، فكان في مراوغته كأن له ثلاثة عقول: أحدها مصري، و الأخر إنجليزي، و الثالث خارج من الحلية. " (14)

و يقول أيضاً: "فكان هو وأمثاله في رأي تلك السياسة القديمة رجالاً كالأفكار يوضع أحدهم في مكانه من الحكم كما توضع صيغة الشك لإفساد اليقين، أو صيغة الو هم لتوليد الخيال، أو صيغة الهوى لإيجاد الفتنة. "(15)

و في هذا التحليل السياسي الذي ذهب إليه الرافعي، لا يعني شخصية سياسية حقيقية، بل يختار الاسم ما يناسب موضوعه ليقول بلسانه ما يريد، كما يقول سعيد العريان: "أما أحاديث الباشا" فأكثرها خيال وأقلها حقيقة، وقد اختار الرافعي بأن يجعل بعض حديثه في الشئون الاجتماعية على هذه النظم حتى لا يمل قراءه.

أما (م) باشا فلا أحسب له شخصية حقيقية كان منها و كان ما روى الرافعي، ولكنها شخصيته من تأليفه هو اصطنعها ليقول بلسانها ما قال" (16)

و في هذا المجال نحن نجد الرافعي أنه يعرف أشياء كثيرة عن السياسة و السياسيين و يعرف أشياء كثيرة، ما تكون في مصالح البلاد و الإسلام.

يبحث الرافعي في مقالاته عن القضايا التي تتعلق بأمور العرب والمسلمين و المرأة و الإسلام، و يصبغها بصبغة دينية و عربية، و يكتبها بأسلوبه الممتاز حتى يغرق القاري في قراءته و يحصل منها ما كانت غاية المصنف، وهي العبرة و الحكمة و العظة, ومن ذلك القسم مقاله الذي كتبه بعنوان "المعني السياسي في العيد" و " السمو الروحي" و" قرآن الفجر " و " الإشراق الإلهي " و سواها كثيرا من المقالات التي تحمل المعاني الإسلامية إما تلميحا أو تصريحا و هذه السمة هي من أولى السمات و أبرزها في مقالاته.

ففي مقالته "المعنى السياسي في العيد " نلاحظ نزعته الدينية و الأخلاقية والعربية، و ينتقد على السياسيين الذين يستعملون و سائل البلاد و أموال الشعب لمنفعة ذاتية. و يركز على فلسفة العيد، وهي اجتماع الكبار و الصغار و الأغنياء والفقراء في مكان واحد بدون أي تفريق و امتياز لعبادة الله تعالى و إظهار شعائر الإسلام، وهو ديننا واحد و غايتنا واحدة. كما هو يقول:

" فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليوم نفسه، ويفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم، و كان العيد في الإسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبحت عيد الفكرة العابثة، و كانت عبادة الفكرة جمعها الأمة في إرادة واحدة على حقيقة

عملية، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة، له مظهر المنفعة وليس له معناها.

كان العيد إثبات الأمة وجودها الروحاني في أجمل معانيه، فاصبح إثبات الأمة وجودها الحيواني في أكثر معانيه، و كان يوم استرواح القوة من جدّها، فعاد يوم استراحة الضعف من ذله، وكان يوم المبدأ، فرجع يوم المادة!

ليس العيد إلا أشعار هذه الأمّة بأن فيها قوة تغيير الأيام، لا إشعارها بأن الأيّام تتغير، و ليس العيد للأمة إلا يوماً تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعي، فيكون يوم الشعور الواحد في نفوس الجميع، و الكلمة الواحدة في ألسنة الجميع، يوم الشعور بالقدرة على تغيير الأيام، لا القدرة على تغيير الثياب.... كأنما العيد هو استراحة الأسلحة يوما في شعبها الحربي."(17)

النـــقـــــد

لقد عاش الرافعي في عصر كثر فيه الأدباء و العلماء من ذوى الاتجاهات المختلفة و الفنون الحديثة التي جاءت من الغرب إلى الشرق. فبعض من علماء العرب وأدبائها دعوا الناس إليها، و بعضهم رفضوها و قاموا بالدفاع عن اللغة العربية و الثقافة العربية، و دعوا الناس على محافظة اللغة بمنبعها الأصيل، والتجديد في أساليبها وألفاظها ما يساعد على نموها و ازدهارها. كان الرافعي من هذه الطائفة الثانية.

و كانت له خصومات أدبية و ثقافية عديدة، خاضها مع الأدباء الكبار في مطلع القرن العشرين، فنجدله خصومات مع الجامعة المصرية حول طريقة تدريس الأدب العربي و مع موسى سلامة حول ميراث المرأة في الإسلام و مع عبد الله

عفيفي و زكي مبارك حول تجديد الأدب العربي ومع طه حسين و العقاد حول مفاهيم الأدب.

قام الرافعي بالنقد على هؤلاء الأدباء الكبار في كتابه "تحت راية القرآن" و "على السفود " وفي مقالات عديدة، نشرت أكثرها مجلة "الرّسالة ".

انتقد الرافعي في مقالات "وحي القلم" على الذين يعتقدون بحرية المرأة مثل حرية المرأة في الغرب، و هجم علي الذين ينتقدون تعدد الزوجات في الإسلام، وللذكر مثل حظ الأنثين في الميراث، و على الذين يدعون الناس إلى تقليد أوربّا في الأدب والثقافة.

و في الكتاب توجد مقالات نقدية كثيرة، بعضها تتعلق بالشعراء العظام و الأدباء الكبار، ينتقد فيها على أسلوبهم و منهجهم و فكرهم، و بعضها تتعلق بالشعر و النثر في عصره يبحث فيها بحثاً دقيقاً عن الأصول والجذور والأساليب والمناهج و في بعض المقالات هو يرد على الذين قاموا بالنقد على الإسلام متأثرين من الثقافة الغربية، مثل سلامة موسى و قاسم أمين و سواهما. والمقالات التي ينتقد فيها على الشعراء هي: "شعر صبري" و "حافظ إبراهيم" و "كلمات عن حافظ" و "شوفي" و "بعد شوقي" و "أمير الشعراء في العصر القديم" و "الملامح التائه" و "المقتطف و المتبني" و "ديوان الأعشاب" و "أبو تمام الشاعر". و المقالات التي ينتقد فيها الكتاب هي: "صروف اللغوي" و "الشيخ الخضري" و "البؤساء" و " شيطاني و شيطان طاغور و "محمد". و مقالاته تتعلق بالشعر و النثر هي: "الأدب و الأديب" و "سر النبوغ في الأدب" و " نقد الشعر و فلسفته" و " الشعر في خمسين سنة" و " رأى جديد في كتب الأدب القديمة" و "القديم والجيد". و المقالات التي ردّ الرافعي فيها على الذين نقدوا وهاجموا على الإسلام هي: "المرأة و الميراث" و "كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة" و "القتل أنفى للقتل ليست مترجمة" و " القتل انفى للقتل ليست جاهلية".

يختار الرافعي في مقالاته المنهج التحليلي و الدفاعي و يستقصي الحقائق و يستجلي الغامض و يقوم بالمقارنة و الموازنة بموضوع آخر من نوعه في المادة.

ومن هذا النوع مقاله عن "شعر صبري" استعرض فيه منهجه و موهبته الشعرية و مؤثراته من الشعراء القديم ثم يقوم بالموازنة و المقارنة بين الشعراء قديماً وحديثا بموضوع و صنف أجاد فيه صبري، فإذا مقاله يشمل شاعرين بدلاً من واحد. يقول الرافعي مقارناً بين البارودى و صبري:

"ظهر البارودي و نبغ في شعره قبل أن يقول صبري الشعر بسنوات، ولكن الأدب الفارسي و الجزالة العربية هما اللذان تحولا فيه، ثم نبع صبري بعد ذلك بزمن، فتحول فيه الأدب الإفرنجي و الرقة العربية، و هذا موضع التفاوت في شعر الرجلين اللذين اقتنصا الخيال الشعري من طرفي الأرض، و كلاهما يذهب مذهبا و يرجع إلى طبع و يروض شعره على وجه، فالبارودي يستجزل و يجمع إلى سبكه الجيد قوة الفخامة و شدة الجزالة، ثم يعترض الخيال من حيث يهبط على النفس في ممر الوحي، و صبري يسترق و يضيف إلى صفاء لفظه جمال التخير و حلاوة الرقة، و يعارض الفكر من حيث يتصل بالقلب، والبارودي لا يرى إلا ميزان اللسان يقيم عليه حروفه و كلماته، و صبري لا يري الا ميزان الذوق الذي هو من وراء اللسان، وقد يسرت لكليهما أسباب ناحيته في أحسن ما يتصرف فيه، فجاء البارودي حافظاً كأنه مجموعة من دواوين العرب و المولدين، و جاء صبري مفكرا كأنّه مجموعة أذواق و أفكار، وهما يشتركان معا في التلوّم على صنعة الشعر و التأني في عمله و تقليبه وعلى وجوه من التصفح، و تمحيصه بالنقد و الابتلاء لفظاً لفظاً وجملة جملة، ثم مطاولة معانيه و مصا برتها كأنما ينتزعان محا سنها من أيدي الملائكة:" (18)

والخصال التي أثبتها الرافعي في مقاله لكل من الشاعرين الكبيرين من عصر الحديث هي التي اتفق عليها الباحثون الكبار في تاريخ الأدب العربي ممن كتبوا عن صبري و البارودي بعد الرافعي، كما يقول الدكتور شوقي ضيف:

"وهذا هو صبري في شعره رقيق الحس عذب النفس، دمث الطبع، خفيف الظل، قلما ينظم القصائد المطولة، إنما ينظم المقطوعات القصيرة التي يضمنها مشاعره في الحب و السياسة و الدين في صدق و إخلاص." (19)

و يبحث في مقاله "الشعر العربي في خمسين سنة" عن أسباب ضعف الشعر في العصور المظلمة، و يبين سببين. الأول: إن الشعراء قد قرضوا الأشعار للخاصة لا للشعب و غايتهم أصبحت محدودة للأغراض النفسية و الحاجات الذاتية بدلاً من أغراض المجتمع و الشعب. كما يقول: "الأول أنه لا يزال كما كان منذ فسدت اللغة العربية: شعر فئة لا شعر أمة، فهو يوضع للخاصة لا للشعب. و يدور مع الأغراض والحاجات لامع الطبائع و الأذواق."(20) ويقول عن السبب الثاني: "سقوط فن النقد الأدبي في هذه النهضة، فإنّ من أقوي الأسباب التي سمت بالشعر فيما بعد القرن الثاني، و جعلت أهله يبالغون في تجويده و تهذيبه، كثرة النقاد و الحفاظ، وتتبّعهم على الشعراء، و اعتبار أقوالهم، و تدوين الكتب في نقدهم، كالذي كان في دروس العلماء و حلقات الرواية ومجالس الأدب". (21)

والجدير بالذكر في هذا البحث هو المنهج الذي اختار الرافعي لإيضاح الموضوع. فهو يبدأ بحثه بكلمة تمهيدية عن ضعف الشعر في العصور المظلمة ثم يبحث في سبب ضعفه بحثا دقيقاً. وفي النهاية يبين ألا سباب التي أدت إلى تطور الشعر في عصر النهضة. وفي مقاله "أمير الشعراء في العصر القديم" يبحث عن امرئ القيس و يثبت له الإمارة في الشعر و التفوق له فيه على جميع الشعراء من أقرانه و ألا لوليه له في أبواب من البلاغة كالتشبيه و الاستعارة و غيرهما. فكل الشعراء الذين جاؤا من بعده احتذوا خطواته الشعرية وقاموا بالزيادة فيها والتوليد بها. و "تلك هي منقبته التي انفرد بها و التي هي سر خلوده في كل عصر إلى دهرنا هذا و إلى بقيت اللغة، فهو أصل من الأصول، في أبواب من البلاغة كالتشبيه و الاستعارة و غيرهما، حتى لكأنّه مصنع من مصانع اللغة لا رجل من رجالها، و كما يقال في زمننا في أمم الصناعة: سيارة فورد و سيارة فيات، يمكن أن يقال مثل ذلك في بعض أنواع البلاغة العربية: استعارة امرئ القيس و تشبيه امرئ القيس".(22)

وكما أنه بحث في مقالاته عن الشعر و نقد عليه بحث عن النثر أيضا و أخذ مثل الطريقة التي بحث بها الشعر. فهو يقوم بالتحليل و النقد والغربلة ثم يأتي بالحقائق و يثبتها بالدلائل و البراهين من الكتب القديمة و الأصول الأدبية حتى يتبين

الحق من الباطل، و خير مثال من ذلك مقاله عن كلمة "القتل انفي للقتل". كتب الأدباء عن حقيقة هذا اللفظ في جميع العصور الأدبية، فبعضهم يري أن أصلها يرجع إلى الفارسية, و لكن الرافعي يرى فيها رأيا غير هذين الرأيين. من حيث هو يقول:."والذي أنا واثق منه أن الكلمة لم تعرف في العربية إلى أواخر القرن الثالث من الهجرة، و هذا الإمام الجاحظ يقول في موضع من كتابه (البيان و التبيين)، في شرح قول على كرم الله وجهه:" بقية السيف أنمي عددا وأكثر ولداً"، ما نصه: "وجد الناس ذلك بالعيان الذي صار إليه ولده من نهك السيف و كثرة الذرء و كرم النجل، قال الله تبارك و تعالى: "ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب" و قال بعض الحكماء: "قتل البعض إحياء الجميع". (23)

و في مقالته " المرأة و الميراث" ينتقد إلى دعوة موسى سلامة إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث. يقول الرافعي ناقداً عليه:

"إن ميراث البنت في الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها، و هو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لإخراج نتيجة صحيحة من العملين معاً، فإذا وجب للمرأة أن تأخذ من ناحية وجب عليها أن تدع من ناحية تقابلها، و هذا الدين يقوم في أساسه على تربية أخلاقية عالية ينشئ بها طباعاً ويعدل بها طباعا أخرى".(24) ويقول عن موسى سلامة و أفكاره:

ولا ريب أن حضرته لا يفهم الدين الإسلامي لأنه ليس من أهله، فهو يقرنا على ذلك، وهو بذلك يقرنا على أنه متطفل في أقراحه، و إن الذي يقرأ في محاضرته قوله: "إن الطبقة الفنية في الأمة هي التي تقرر ديانة الأمة..." يستيقن أنه لا يفهم دينا ًمن الأديان، و أنه قصير النظر في أمور الاجتماع و أبواب السياسة، وأن يمينه و شماله و أمامه و وراءه إن هي إلا جهات الزمام الذي ينقاد فيه، فلا شخصية له، و إنما يتابع و ينقاد للآراء التي يترجم منها بلا نقد ولا تميز".(25)

الفصـــــل الثـــــاني

القيـــم الإسلاميـــة

يكتب الرافعي دائما في كتبه و مقالاته عن الإسلام، و يعرض أمام الناس صورة صحيحة له، و يستقصي لها المواد من مصادر الإسلام، فنجده في اكثر الأحيان، يكتب في كتابه و مقالاته عن الإسلام أو في دفاع عنه أوفي الرد على الملحدين و المارقين ممن بلغت بهم الجرأة أن يقولوا على الله سبحانه و الأديان السماوية مالا يعلمون و أن يجعلوا نصوص القرآن في موضع الشك أو المقارنة البلاغية بين الذكر الحكيم المنزل و الأساليب العربية. و يذكر مفاهيم الإسلام و تعاليمه بأسلوب فيه من الفلسفة دقتها و تحليها ومن الأدب عذوبة السياق و جمال المعاني حتى يثبت على الناس أنه لا يعم السلام في الأرض و لن يعيش الإنسان على الأرض في السكون و الهدوء إلا إذا عمت روح الإسلام و تعاليمه بين الناس كما هو يقول:

"فليس السلام إلا إذا عم هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها، فإنّ قانون العالم حينئذ يصبح منتزعًا من طبيعة التراحم، فإما انتسخ به قانون التنازع الطبيعي، و إما كسر من شرتـه، و يولد المولود يومئذ و تولد معه الأخلاق الإنسانية" (26)

و نحن نري جميع كتبه و خاصة كتابه "وحي القلم" يصطبغ بالصبغة الإسلامية. وذلك لانه كتب مقالاته بالمناسبات الدينية و الأخلاقية و الأدبية،أوردا على مقالات من الملحدين و الناقدين على الإسلام. و أنه قد كتب هذه المقالات في أزمنة متباعدة و خاصة في فترة ما بين 1933 إلى 1937، و في مناسبات موحية بالمعاني الإسلامية، مثل المواسم و الأعياد، و اكثر المقالات من هذه المناسبات تدل على المعنى الديني الإسلامي مثل "إجتلاء العيد" و "المعني السياسي في العبد" و

"قصة زواج" و "فلسفة المهر" و "الإشراق الإلهي" و "فلسفة الإسلام" و "وحي الهجره" و " الإسراء و المعراج".

ويمتاز الرافعي في مقالاته بالنزعة الدينية و الأصالة الإسلامية، ويختار لها المناهج المختلفة و المتنوعة حسب الموضوع و المناسبة لإبراز المعاني الإسلامية. يقول ضيف الله م.ح.م:

"والطريقة التي ينتهجها في إبراز المعاني الإسلامية تتنوع حسب الموضوع ومناسبته فان كان مما يحمل هذه المعانى الإسلامية بطبيعته، اكتفي بتلك المعني نفسها، و أبروزها في ثوب أنيق مثل ما كتبه عن "قصة زواج" و "فلسفة المهر" و "الأيدي المتوضئة" و إن لم يحمل هذه المعاني اختلق فكرة دينية و وضعها في كفة دينية ليقابل بها الموضوع الأصلي، وفي هذه الحالة يلجأ إلى طريقة المقارنة، يوازن بين الفكرة و ما يقابلها، حتى ينتهي إلى أن الخروج عن حدود الدين مما يشين و يسئ إلى سمعة المرء و وطنه و مجتمعه". (27)

يقوم الرفعي في مقالاته الإسلامية بالحصول على المادة والجوهر من الكتب الإسلامية التي اتفق العلماء، على ثقتها و صحتها، ثم يكتب في ضوءها مقالاته و يبحث فيها عن فلسفة الإسلام وأسرار الشريعة. كما نحن نرى في مقاله "وحي الهجرة" أنه يستقصي المادة من الكتب التاريخية الموثوقة بها، و يبحث فيه عن فلسفة الهجرة و حياة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة. يكتب الرافعي: "و لبث النبي صلى الله عليه و سلم ثلاث عشرة سنة لا يبغيه قومه إلا شرا، علي أنه دائب يطلب ثم لا يجد، و يعرض ثم لا يقبل منه، و يخفق ثم لا يعتريه اليأس، و يجهد ثم لا يخونه الملل، و يستمر ماضيا لا يتحرف، و معتزماً لا يتحول، أليست هذه هي أسمى معاني التربية الإنسانية أظهرها الله كلها في نبيه، فعمل بها و ثبت عليها، و كانت ثلاث عشرة سنة في هذا المعنى كعمر طفل ولد و نشا و أحكم تهذيبه بالحوادث، حتى تسلمته الرجولة الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها". (28)

ويثبت من هذا المقال وسواه أنه كان نبيا صادقا بعثه الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، و بذلك قد أقام مكة إلى مدة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى

الإسلام رغم عن التكذيب والتعذيب والإهانة من قبلهم، و رفض مطالبتهم حينما عرض أهل مكة على البني صلى الله عليه و سلم المال والمرأة و السيادة هذه البراهين و الدلائل هي لإثبات نبوته. كما يقول الرافعي:

"يا دموع النبوة! لقد أثبت النفس العظيمة لن تتعزي عن شئ منها. بشيء ومن غيرها كائنا ما كان، لا من ذهب الأرض و فضتها، و لا من ذهب السماء و فضتها إذا و ضعت الشمس في يد و القمر في الأخرى.

و كل حوادث المدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل ذلك الزمن على أنه زمن نبي، و لازمن ملك أو سياسي أو زعيم، و دليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعي من جهة قوته، بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه، و دليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عدوى النفس للنفس، فها هو ذا لا يبلغ أهله في ثلاث عشرة سنة اكثر مما تبلغ أسرة تتوالد في هذه الحقبة، و دليل الإنسانية أنه وحي الله بإيجاد الإخاء العالمي و الوحدة الإنسانية. أ فلم يكن خروجه عن موطنه هو تحققه في العالم".

"ثلاث عشرة سنة، كانت ثلاثة عشر دليلا تثبت أن النبي صلى الله عليه و سلم ليس رجل ملك، ولا سياسة، ولا زعامة، ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل، و ليس مبتدع شريعة من نفسه، و إلا لما غبر في قومه و كأنه لم يجدهم وهم حوله".(29)

والجدير بالملاحظة أن اكثر المقالات الإسلامية في كتابه تتعلق بالحياة النبوية صلى عليه و سلم، يبحث فيها عن حياته صلى عليه و سلم، و يدعو الناس إلى جعل السيرة النبوية أسوة لحياتهم و ينتقد على الذين يزعمون أن محمداً صلى الله وعليه وسلم انما استكثر من النساء لأهواء نفسية محضة، وعلى الذين ينكرون معجزات النبوية و يرون للمرأة ما للرجال من حقوق و واجبات، خاصة في الميراث. ففي مقاله "درس من النبوة "يهاجم على الملحدين و المشرين يزعمون أن النبي صلى الله عليه و سلم تزوج بتسعة نساء لأهواء نفسية محضة و شهوات كالشهوات، و يصفهم "بأهل الزيغ و الإلحاد، و طائفة من قصار النظر في التحقيق". (30)

ويرد على قولهم و مزاعمهم الفاسدة في ضوء هذه الآية الكريمة: "يأيها النبي قل لأزواجك: إن كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها فتعالين أمتعكن و أسرحكن سراحا جميلا، و إن كنتن تردن الله و رسوله و الدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما". ثم يقول: "فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفي الزينة و تجريد نسائه جميعا منها، و تصحيح النية بينه و بينهن على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة، و تحت جو لا يكون ابداً جوّا الزهر....و أمره من قبل ربه أن يخيرهن جميعاً بين سراحهن فيكن كالنساء و يجدن ما شئن من دنيا المرأة، و بين إمساكهن فلا يكن معه الاّ في طبيعة أخري تبد أمن حيث تنتهي الدنيا و زينتها.

فالقصة نفسها رد على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة، و لا سياسة معانبها، ولا أسلوب غضبها أو رضاها. وما ههنا تمليق، و لا إطراء ، ولا نعومة، ولا حرص على لذة، ولا تعبير بلغة الحاسة، و القصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبة معنى من حرارة القلب، ولا اثر ولا بقية اثر من ميل النفس، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم.

وبرهان أخر، وهو أن النبي صلى الله علية وسلم لم يتزوج نساءه لمتاع مما يمتع الخيال به، فلو كان وضع الأمر على ذلك لما استقام ذلك الا بالزينة و بالفن الناعم في الثوب و الحلية و التشكل كما نري في الطبيعة الفنية، فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا في المسرح المهيا بمناظره و جوه ... و قد كان نساؤه صلى الله عليه و سلم أعرف به، و ها هو ينفي الزينة عنهن و يخيرهن الطلاق إذا أصررن عليها. فهل ترى في هذا صورة فكر من أفكار الشهوة؟ و هل تري إلا الكمال المحض؟ و هل كانت متابعة الزوجات التسع إلا تسعة براهين على هذا الكمال؟". (31)

وفي مقاله حقيقة المسلم" يتناول الإسلام من ناحية تسميته بالإسلام و يفلسفه أن معناه إسلام النفس إلى و اجبها الإنساني في مبدأ إنكار الذات، لأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الإنسانية فيخدم الإنسانية و يحي لها و لا يكون له حظ أن يمسكها على شهواته و منافعه. يقول الرافعي بهذا الصدد:

"و ما الإسلام في جملته إلا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و (إسلامها) طائعة على المنشط و المكره لفروضها وواجباتها، و كلما نكصت إلى منزعها الحيواني، أسلمها صاحبها إلى و ازعها الإلهي". (32)

وفي مقاله "ثبات الأخلاق" يوسع دائرة معني الإسلام و يدخل فيه جميع النواحي من السياسة و الاجتماع والوطن، على أن يكون ذلك كله مبينا على أسس أخلاقية. ولا يفرق بين الإسلام و الأخلاق، بل يفسر الإسلام بالأخلاق و الأخلاق بالإسلام. و هذه الفكرة ليست جديدة في مقالات "وحي القلم" بل توجد في جميع كتبه و مقالاته. و يوضح فلسفة الإسلام بهذه الكلمة:

ولو أنني سئلت أن أجمل فلسفة الدين الإسلامي كلها في لفظين، لقت: " إنها ثبات الأخلاق، و لو سل اكبر فلاسفة الدنيا أن يوجز علاج الإنسانية كله في حرفين، لما زاد على القول: إنه ثبات الأخلاق. ولو اجتمع كل علماء أوربا ليدرسوا مدنية الأوروبية و يحصروا ما يعوزها في كلمتين لقالوا: ثبات الأخلاق". (33)

والقيم الإسلامية التي يدعو أليها الرافعي في مقالاته لم تقتصر على السيرة النبوية فقط، بل شملت جميع النواحي التي لها أية علاقة بالمجتمع، و يعطي أهمية خاصة شؤون المرأة و قضاياها ويحاول أن يعرض أمام الناس حقوق المرأة وواجباتها كما جاءت في القرآن و السنة، و اكثر الكتابة في الزواج و المهر و فلسفة المهر و بحث فيها عن حقوقها و واجباتها و حث الناس على القيام بأدائها و نصح النساء في ضوء الكتاب والسنة وحث على التمسك بهما، و ينظر إليها من عدة جوانب و يدافع عنها من نواحي عدة، ففي أكثر الأحيان هو يهاجم على الذين يستعملونها كأثاث البيت ويهضمون حقوقها و واجباتها التي أعطاها الشريعة الإسلامية.

ويذكر أيضا في مقالاته آلام البؤسا و المشردين، و يتألم بمصائب الطبقة السفلي و آلامها و يصور أمام الناس حالتهم البائسة لتتدفق عليهم لتعرف أنات البشرية الحقائق المرة فيأتي الأغنياء إليهم للمسا عدة والنصر ويعتبروهم ويعد وهم جزءاً من مجتمعهم و بلادهم و يعتنوا بهم عناية كريمة و يعاملوهم بالعطف و

الرحمة والدعة، ومن خير ما يصور ذلك عنده مقاله "أحلام في الشارع" يصور فيه بؤس طفل و أخته ليس لهما أب وأم يقوم بكفالتهما وما كان لهما بيت يأويان إليه في الليل، فهما ينامان على عتبة (البنك) يفترشان الرخام البارد ويلتحفان السماء. يصور الرافعي حالتهما بقوله: "يا عجبا! بطنان جائعان في أطمار بالية يبيتان على الطوى و الهم، ثم لا يكون و سادهما إلا عتبة البنك! تري من الذي لعن (البنك) بهذه اللعنة الحية؟ ومن الذي وضع هذين القلبين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنك خزائنه حديدية يملؤها الذهب، و لكنه خزائن قلبية يملؤها الحب؟"

"وقفت أرى الطفلين روية فكر وروية شعر معاً، فإذا الفكر و الشعر يمتدان بيني و بين أحلامها، و دخلت في نفسين مضهما الهم و اشتد عليهما الفقر، و ما من شئ في الحياة إلا كادّ هما و عاشرهما، ونمت نومتي الشعرية...

قال الطفل لأخته: هلمي فلنذهب من هنا فنقف على باب (السينما) فنفرج مما بنا،فنرى أولاد الأغنياء الذين لهم أب ولأم.

انظري هاهم أولاد يرى عليهم أثر الغني، و تعرف فيهم روح النعمة، و قد شبعوا ... إنهم يلبسون لحما على عظامهم، أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد الحذاء، انهم أولاد أهليهم، أماّ نحن فأولاد الأرض، هم أطفال ونحن حطب إنساني يابس، يعيشون في الحياة ثم يموتون، أماّ نحن فعيشنا سكرات الموت، إلى أن نموت، لهم عيش وموت، ولنا الموت مكرراً".(34)

ويصوّر أحلام الطفل الصغير البائس بمثل أحلام الأطفال من أسرة الأغنياء الذين يحلمون بالثروة والجاه والمرتبة في حياتهم. فهذا الطفل البائس أيضاً يحلم أنه لو يصير مدير البلدية فيكون له الجاه والمرتبة مثل الأغنياء ويقوم بالأعمال التي تكون فيها منفعة للفقراء والبائسين. يقول الرافعي بلسان هذا الطفل البائس:

"آه لو صرت مديراً أتدرين (مخاطباً أخته) ماذا أصنع؟

ماذا تصنع يا أحمد؟

أعمد إلى الأغنياء فأردّهم بالقوة إلى الإنسانية، وأحملهم عليها حملاً، صلح فيهم صفاتها التي أفسدها الترف واللين والنعمة، ثم أصلح ما أخل به الفقر من صفات

الإنسانية بالفقراء، واحملهم على ذلك حملاً، فيستوي هؤلاء وهؤلاء، ويتقاربون، على أصل في الدم إن لم يلده آباؤهم ولده القانون. ألا إن سقوط أمتنا هذه. لم يأت إلا من تعادي الصفات الإنسانية في أفرادها، فتقطع ما بينهم، فهم أعداء في وطنهم، وإن كان اسمهم أهل وطنهم.

ومتى أحكمت الصفات الإنسانية في الأمة كلها وداني بعضها بعضاً – صار قانون كل فرد كلمتين، لا كلمة واحدة كما هو الآن، القانون الآن (حقي) ونحن نريد أن يكون (حقي و واجبي) وما أهلك الفقراء بالأغنياء، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام – إلا قانون الكلمة الواحدة".(35)

القيـــم العـــربيـــة

في أوائل القرن الماضي أو قبله بقليل ظهرت فكرة القومية العربية في البلاد العربية، وأخذت تنمو وترعرع شيئاً فشيئا حتى أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى ذات معالم واضحة، واشتعلت نيرانها وانتشرت جمرتها في جميع أنحاء العالم العربي بعد ظهور محنة فلسطين في الأفق العربي، وأسفرت عنها الثورة ضد البريطانيين فالفرنسيين الغاصبين والمسيطرين على بلادهم، واليهود الجاشعين الذين جاؤا من جميع أنحاء العالم للسيطرة على الأرض المقدّسة، والقبلة الأولى. ففي عام 1936م اندلعت الثورة ضد اليهود والإنجليز في جميع التراب الفلسطيني، فانتضى كل كاتب وطني قلمه ليعبر عن مشاعره العربية نحو الفلسطينيين ووقف يستصرخ المسلمين للذود عن الوطن المقدّس وأهله من العرب أمام البريطانيين الغاصبين و اليهود الجاشعين داعياً إلى الجهاد ضد العناصر الغربية واليهودية.

كان الرافعي من هؤلاء الذين دعوا العرب والمسلمين إلى الجهاد والمقاومة ضدهم بأسلوب ناري متأجج. ويستصرخ بهم في مقالاته "أيها المسلمون" و "شباب العرب" و "قصة الأيدي المتوضئة" وسواهما.

وفي مقاله "يا شباب العرب" يدعو الشباب العربي إلى الكفاح و القادمة ضد اليهود، وينتقد على فكرتهم الخبيثة وعقولهم الماكرة. يقول بهذا الصدد.

"نهضت فلسطين تحلّ القعدة التي عقدت لها بين السيف، والمكر، والذهب. عقدة سياسية خبيثة، فيها لذلك الشعب الحرّ قتل وتخريب، وفقر. عقده الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب، الوعد الكذب والفناء البطيء، ومطامع اليهود المتوحشة.

أيها المسلمون! ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الإسلام، يريدون إلا يثبت شخصيته العزيزة الحرة. كل قرش يدفع الآن لفلسطين، يذهب إلى هناك ليجاهد هو أيضاً".(36)

ويقول عن اليهود وفكرتهم الخبيثة وغايتهم الباطلة:

"ابتلوهم باليهود يحملون في دمائهم حقيقتين ثابتتين: من ذلّ الماضي وتشريد الحاضر. ويحملون في قلوبهم نقمتين طاغيتين: إحداهما من ذهبهم، والأخرى من رذائلهم، ويخبئون في أدمغتهم فكرتين خبيثتين: أن يكون العرب أقلية، ثم أن يكونوا بعد ذلك خدم اليهود. في أنفسهم الحقد. وفي خيالهم الجنون، وفي عقولهم المكر، وفي أيديهم الذهب الذي أصبح لئيماً لأنه في أيديهم. أيهما المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين، يذهب إلى هناك ليتكلم تردّ إلى هؤلاء العقل".(37)

ويتحدث عن قوة الإسلام والمسلمين ويحثهم للمقاومة ضد أعدائهم قائلاً:

"لو سئلت ما الإسلام في معناه الاجتماعي؟ لسألت: كم عدد المسلمين؟ فإن قيل: ثلاثمائة مليون، قلت: فالإسلام هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلاث مائة مليون قوة. أيجوع إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون؟ إن هذا الشبع ذنب يعاقب الله عليه. والغني اليوم في الأغنياء المسكين عن إخوانهم، هو وصف الأغنياء باللؤم لا بالغنى. كل ما يبذله المسلمون لفلسطين، يدلّ دلالات كثيرة، أقلها سياسة المقاومة".(38)

وفي مقالته عنوانها "يا شباب العرب" يوجهه فيها النداء إلى الشباب العربي ويحثهم على الكفاح والمقاومة بوطنهم ودينهم ويذكرهم بقصة الأسلاف الأولين، انهم

فتحوا الدنيا وأخرجوا الناس من الظلمات وعبودية الأوثان وهداهم إلى النور والصراط المستقيم كما هو يقول:

"يا شباب العرب! كانت حكمة العرب التي يعملون عليها: اطلب الموت توهب لك الحياة. والنفس إذا لم تخش الموت كانت عزيزة الكفاح أول غرائزها تعمل. وللكفاح غريزة تجعل الحياة كلها نصراً، إذا لا تكون الفكرة معها إلا فكرة مقاتلة، غريزة الكفاح يا شباب، هي التي جعلت الأسد لا يُسمَّنُ كما تسمّن الشاة للذبح".(39)

ونراه دائماً ينفخ في الشباب المصري روح الإسلام ويوقظ في قلوبهم حميتهم للوطن وغيرتهم للدين ويحثهم للمهاجمة على الإنجليز ليذيقوهم وبال استعمارهم، ويرجو منهم أن يتحولوا شعلة آدمية ويأتون بالأشياء التي لم يسبق لها المثيل في التاريخ، ويدعوهم إلى ترك الحياة المترفة والغربية وأخذ الحياة الشرقية الإسلامية. توجد هذه الفكرة خاصة في مقالاته: "أجنحة المدافع المصرية" و الطماطم السياسي" و "المعنى السياسي في العيد" و "قصة الأيدي المتوضئة".

يقول الرافعي عن الحياة الإسلامية الشرقية:

"أصبح الشرقي يعيش في أمته على قاعدة أنه منفرد لا صلة بينه وبين الأطراف لا في الزمان ولا في المكان، ونسى معنى الحديث الشريف: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً". فماذا كان يريد أعظم المصلحين الاجتماعيين من قوله: "كأنك يعيش أبداً"؟ إلا أن يقرر لأمته أنّ الفرد ينبوع الأجيال المقبلة كلها، فليعمل لها ولنفسه كأنها موقوفة عليه ومستمر فيها.

هذه حكمة إسلامية دقيقة، عندنا نحن لفظها ولسنا نعرف معناها، وعند الإنجليز معناها ولا يعرفون لفظها. أهم المسلمون أم نحن؟".(40)

ويبحث في مقالته "نهضة الأقطار العربية" عن نهضة العرب وثبتهم للحرية والاستقلال، وما حققوه من تقدم سياسي ووطني وعزمهم على إزالة غبار العبودية السياسية من أنفسهم، وإثارة الشعور في أذهانهم لتحقيق الحرّية والاستقلال وطرد الاستعمار الأجنبي من بلادهم. وقد نما وتطور هذا الشعور في السنوات التي تلت

ثورة مصر عام 1919م، حينما أخذت الصحافة العربية توجه الأقلام إلى مثل هذه الموضوعات الوطنية والإسلامية. كما يقول الرافعي:

"لا ريب في أن النهضة واقعة في الأقطار العربية، مستطيرة في أرجائها استطارة الشرر يضرم في كل جهة ناراً حامية، ويستمد من كل ما يتصل به لعنصره الملتهب ولا ريب في أنّ الشرق قد تفلت من أوهام السياسة وخرافاتها، و قد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمناً، وتابعه مدة، وعرفه بمقدار ما بلاه، وكذبه ما صدقه ونفر منه بقدر ما اطمأن إليه، ولا ريب في أنّ العقل الشرقي قد تطور وأدرك معنى نكث العهد ونقض الشرط في السياسة الغربية، وعلم أن ذلك هو بعينه العهد والشرط في هذه السياسة ما دامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والشاة".(41)

ثم يتحدث في هذه المقالة عن أساس نهضة الشرق العربي ويقارنها بالغرب: "لست أقول إن نهضة الشرق العربي لا أساس لها، فإن لها أساساً من حمية الشباب، وعلم المتعلمين. ومن جهل أوروبا الذي كشفته الحرب، ولكن هذا كله على قوته وكفايته في بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى واهتياج العواصف السياسية – لا يحمل ثقل الزمن الممتد، ولا يكفي لأن يكون أساساً وطيداً يقوم عليه بناء عدة قرون من الحضارة الشرقية العالية، بل ما أسرعه إلى الهدم والنقص، لو صدمته الأساليب اللينة من الدهاء الأوروبي على اختلافها... إذا قدر لأوروبا أن تفوز بأسلوبها الجديد، أسلوب استعباد الشرق بالصداقة ... على طريقة ادعاء الثعلب للدجاج أنه قد حج وتاب وجاء ليصلي بها.

والذي أراه أن نهضة هذا الشرق العربي لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان: الدين الإسلامي، واللغة العربية، وما عداهما فعسى أن لا تكون له قيمة في حكم الزمن الذي لا يقطع بحكمه على شيء إلا بشاهدين من المبدأ والنهاية".(42)

وانّ الركنين الأساسيين اللذين يعتبرهما الرافعي ويشترطهما لنهضة الشرق العربي وتطورها، هما في الحقيقة أساس الانتصار لجميع الأقوام. ونحن نرى أن أكثر الحروب في القرون الوسطى وقعت بسببها. فالروم قد هاجموا على البلاد في

الشرق الأوسط لنشر دينهم وفرض أفكارهم على الأمم المغلوبة وهكذا خاض المسلمون كثيراً من الحروب بحمية الدين. أما اللغة فيقول بهذا الصدد بديع الزمان: "سئل أحد الساسة الأتراك؛ متى ابتدأت انكسارات الدولة العثمانية؟ فأجاب منذ أول انتصار. ثم فسرّ جوابه هذا بقوله: لأنها لم تفرض لغتها على المغلوبين".(43)

ونجد الرافعي ولوعاً بالمعاني الإسلامية والعربية في كتبه ومقالاته، وبصفة خاصة في هذا الكتاب. ويصبغها بصبغة إسلامية وعربية، ويهتم بالقضايا العربية والإسلامية اهتماماً بالغاً، وبذلك هو يعدّ: عند كثير من القراء في الأقطار العربية، أديب الأمة العربية والمسلمة، ويلقب بكاتب الإسلام والعروبة. كما يقول شوقي ضيف :

"وهو في مقالاته بوحي القلم يستلهم دائماً مثله الإسلامية مستضيئاً بها في كل ما يكتب، كما يستلهم مثله العربية بحيث أن نلقبه "كاتب الإسلام والعروبة".(44)

قضـــــايـــا المـــــرأة

كان الرافعي منذ شبابه وبداية أعماله الأدبية مخالفاً عن الحرية التي تتمتع بها نساء الغرب، حيث إنهن يسافرن إلى الأماكن الغريبة والبلاد الأجنبية بدون المحرم ويعملن في الشركات والمؤسسات بدون حجاب. ويخالف الناس الذين يرون للنساء ما للرجال من حقوق وواجبات، ينتقد على آرائهم وأفكارهم، لأنه رأى أنهم قد قالوا ذلك تقليداً للأوروبيين وخلافاً عن حرمة المرأة وتعظيمها وحقوقها.

ويرى مشاكل المرأة وقضاياها التي كانت متشعبة وذات جوانب متعددة. ولذلك لم يقتصر على قضايا المرأة، تتعلق بالحجاب والميراث ونحوهما بل يتجاوز إلى الأمور التي تتصل بأخلاقها وسلوكها، والمشاكل التي كانت توجهها من قبل الرجال في البيوت وخارجها من قبل المجتمع. فاضطرّ الرافعي إلى أن يتناول قضاياها ويكتب عنها في مقالاته ويدعو الناس إلى إعطاء حقوقها وواجباتها التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ورسوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف.

ويذكر الرافعي في مقالاته فلسفة المهر والميراث والزواج ومثلها القضايا المتعلقة بالمرأة. يردّ فيها على آراء قاسم أمين وولي الدين يكن وموسى سلامة وغيرهم ممن نادوا "بتحرير المرأة" واعترضوا على ميراث المرأة في الإسلام في عدد من المقالات والبحوث.

ففي مسلسل قصة "الطائشة" يتحدث عن قصة فتاة طائشة من الفتيات اللاتي نلن هذا التحرر وانعتقن من السجن المزعوم، وكشفن الحجاب، وسافرن إلى الأماكن البعيدة والأجنبية بدون المحرم.

ويلوم الزعماء الذين يدعون الناس إلى تحرير المرأة على أنهم لم يستطيعوا أن يقدموا لها التعليم والتربية ما ينفعها في دينها ودنياها ويبقى حرمتها وعظمتها، ويتهم المدرسة بأنها قاصرة أن تزيّنها من حلي الإسلام والعرب التي تكون في مصالح أولادها و بلادها.

يقول الرافعي بلسان الراوي في وصف الطائشة وأثر التعليم الغربي على المجتمع العربي المصري:

"قلت ويحك يا هذا! أ تعرف ما تقول؟

قال : فمن يعرف ما يقول إذا أنا لم اعرف؟ لقد أحببت خمس عشرة فتاة، بل هن أحببنني وفرّغن قلوبهن لي، ما اعتزّت عليّ منهن واحدة، وقد ذهبن بي مذهباً، ولكني ذهبت بهن خمسة عشر!

قلت: فلا ريب أنك تحمل الوسام الإبليسي الأول من رتبة الجمرة... فكيف استهام بك خمس عشرة فتاة، أ جاهلات هن، أ عمياوات هن...؟

قال: بل متعلمات مبصرات يرين ويدركن، ولا تخطي واحدة منهن في فهم أنّ رجلاً وامرأة قصة حب... وما خمس عشرة فتاة؟ وما عشرون وثلاثون من فتيات هذا الزمن الحائر الباهر، الذي كسد فيه الزواج، ورقّ فيه الدين، و سقط الحياء، والتهبت العاطفة، وانتشر اللهو، وكثرت فنون الإغراء، واصطلح فيه إبليس والعلم يعملان معاً... واطلقت الحرّية للمرأة، وتوسعت المدارس فيما تقدم للفتيات،

واظهرت من الحفاوة بهن أمراً مفرطاً حتى أخذن منها ربع العلم؟ وقلت: وثلاثة أرباع العلم الباقية؟

قال: يأخذنها من الرويات والسيما".(45)

وقام الرافعي بسخرية الحضارة الأوروبية والحرّية المفتعلة للمرأة في هذه المقالة في أماكن عديدة، وفي بعض الأحيان يبالغ فيها حتى ينتهي إلى منتهاها. وخاصة حين يراها قد انصرفت بهذه الحرّية المزعومة عن وظيفتها الطبيعية التي أعطاها الله وهي الأمومة التي حرّم منها أبناء الأمة. كما هو يقول: "فتاة تخرّجت من مدرسة أو كلية، وأو جاءت من أوروبا بالعالمية". أ فتدري أية معجزة مصرية في هذا تباهى بها مصر"؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرّسة، أو مفتشة، أو ناظرة في وزارة المعارف، أو مؤلّفة كتب وروايات، أو محرّرة في صحيفة من الصحف. ولا يصغّرنَّ عندك شأن هذه المعجزة، فهي والله معجزة مادام يتحقق بها خروج من حكم الطبيعة عليها، وبقاءها في الاجتماعي المصري امرأة بلا تأنيث، أو انقلابها فيه رجلاً بلا تذكير!

وكيف لا يكون من المعجزات أن تأليف رواية قد أغنى عن تأليف أسرة، وأن فتاة تعيش وتموت وما ولدت للأمة إلا مقالات...؟(46)

يرى الرافعي هذه الحرية بنظرة المصلح الديني و الوطني الذي يرى مكمن الداء و يعرف الدواء. و يري أن الحكومة فد قصرت عن توجيه الناس و إرشادهم حينما أتاحت الفرصة للمرأة أن تخرج عن طبيعتها بإهمال أوامر الدين و نواهيه. ويرى أن الدين هو الفيصل في كل معضلة ومشكلة، والحكومة الراشدة التي هي وحدها قادرة على علاج المشاكل و استئصال أسبابها. يقول الرافعي بهذا الشان:

"لقد غفلت الحكومات عن معني الدين و حقيقته، فلو عرفت لعرفت أن الإنسانية لا تقوم إلا بالدين والعم كليهما، فإن في الرجل إنساناً عاماً و نوعاً خاصاً مذكرا، و في المرأة إنسان عام كذلك و نوع خاص مؤنث. و الدين و حده هو الذي يصلح النوع بتحقيق الفضيلة و تقرير الغاية الأخلاقية، و هو الذي يحاجز بين

الغريزتين، و هو الذي يضع القوة الروحية في طبيعة المتعلم، فإن كانت طبيعة التعليم قوية". (47)

والجدير بالذكر أنه ما كان يخالف التعليم المرأة و تقدمها في هذا المجال بل كان يخالف التعليم المختلط في الكليات والجامعات و أن تخلع المرأة حجابها. و لذلك لما رفع طلبة كليات الجامعة المصرية في عام 1937 إلى مديرها و عمدائها و أساتذتها طلباً يلتمسون فيه إدخال التعليم الديني في الجامعة، و يطالبون بالفصل بين الشباب و الفتيات في فصول الدراسة، فقام بتأييدهم و كتب مقالة حيا فيها هؤلاء الشباب المسلمين و أشاد بماطلبوا من المسؤولين عن الجامعة: " حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية، لقد كتبتم الكلمات التي تصرخ منها الشياطين... كلمات لو انتسبن لانتسبت كلّ واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحي في كتاب الله. فطلب تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمي إلى هذه الآية : "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس" وطلب الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية: "ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن". وطلب إيجاد المثل الأخلاقي لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية: "هذا بصائر للناس وهدى ورحمة".(48)

وبعد هذا يخاطب المسئولين عن الجامعة ويلومهم على انحراف بعض أفكارهم وينتقدهم – الحرية المزعومة – وتقليد أوروبا بقوله: "لا، لا يا رجال الجامعة، إن كان هناك شيء اسمه حرية الفكر فليس هناك شيء اسمه حرّية الأخلاق.

تقولون : أوروبا وتقليد أوروبا!! ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لا لخضوعنا لأوروبا. وتقولون إنّ الجامعات ليست محل الدين، ومن الذي يجهل أنها بهذا صارت محلا لفوضى الأخلاق. وتزعمون أنّ الشباب تعلموا ما يكفي من الدين في المدارس الابتدائية والثانوية فلا حاجة إليه في الجامعة. أ فترون الإسلام دروساً ابتدائية وثانوية فقط، أم تريدونه شجرة تغرس هناك لتقلع عندكم... لا يا رجال الجامعة، إنّ قنبلة الشباب المجاهد تملأ بالبارود لا بالماء المقطّر".(49)

لم يكتف الرافعي المقال فقط، ينتقد على مسئولي الجامعة فقط بل كتب مقالات كثيرة ينتقد فيها نقداً عنيفاً على الداعين إلى الاختلاط بين الشباب والفتيات، ويطلب أن يكون الدين من بين مواد الدراسة الجامعية. ونحن نراه في مقالته عنوانها: "شيطان وشيطانه"، التي رفضت نشرها مجلة "الرسالة" حفاظاً على ما بينه وبين فلان من صلات الود، وبقي المقال في مكتب المؤلف حتى أخذته المنية، يتجاوز عن الحدود ويدخل في نقاش حاد مع رجال الجامعة والداعين إلى الاختلاط بين الشباب والفتيات.

ولما كتب موسى سلامة مقاله في "السياسة" ودعا به الناس إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث، فثار الرافعي غضباً وهجم عليه هجماً عنيفاً ووصفه بـ "ضعف تفكيره وسوء تقليده، ويكاد لا يميز بين الرأي الصحيح الثابت في نفسه لأنه قائم على حكمته الباعثة عليه، وبين الرأي المتغير في كل نفس بحسبها لأنه قائم على منزع أو غفلة أو مرض في النفس. ترى الكاتب (موسى سلامة) لا يدعو إلا تقليد أوروبا، وتكاد عباراته في ذلك لا تحصى ويقول إن "المصلح المثمر عندنا هو مقلد لأوروبا لاغش في تقليده"، فليس إلا أوروبا وتقليدها وإذا لم يكن في أوروبا قرآن ولا إسلام فالإصلاح المثمر عند الكاتب ألا يبقى من ذلك شيء".(50)

ثم يواصل كلامه عن موسى سلامة ويردّ على رأيه" مساواة المرأة بالرجل في الميراث" بقوله:

"إن ميراث البنت في الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها، وهو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لإخراج نتيجة صحيحة من العملين معاً، فإذا وجب للمرأة أن تأخذ من ناحية وجب عليها أن تدع من ناحية تقابلها، وهذا الدين يقوم في أساسه على تربية أخلاقية عالية ينشئ بها طباعاً ويعدل بها طباعاً أخرى... للمرأة حق واجب في مال زوجها، وليس للرجل مثل هذا الحق في مال زوجه، والإسلام يحث على الزواج، بل يفرضه، فهو بهذا يضيف إلى المرأة رجلاً ويعطيها به حقاً جديدا، فإن هي ساوت أخاها في الميراث مع هذه الميزة التي انفردت بها انعدمت المساواة في الحقيقة، فتزيد وتنقص، إذ لها حق الميراث وحق النفقة وليس له إلا مثل حقها في الميراث إذا تساوياً".(51)

الحـــــواشـــــي

(1) سعيد العريان : "حياة الرافعي" ص. 251.

(2) نفس المصدر، ص. 252

(3) نفس المصدر، ص. 254

(4) الرافعي : "وحي القلم"، دار الكتاب العربي، بيروت، ج1، ص 18.

(5) نفس المصدر، ج1 ص 18

(6) نفس المصدر، ج1 ص 28

(7) نفس المصدر، ج1 ص 131

(8) نفس المصدر، ج1 ص 116

(9) نفس المصدر، ج1 ص 103

(10) نفس المصدر، ج1 ص 105

(11) نفس المصدر، ج1 ص 112

(12) نفس المصدر، ج3 ص 257

(13) شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر، ص 205

(14) الرافعي : "وحي القلم"، ج2 ص 262

(15) نفس المصدر، ج2 ص 262

(16) العريان : حياة الرافعي، ص 300

(17) الرافعي : وحي القلم، ج1 ص 34

(18) نفس المصدر ج3 ص 260

(19) شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر، ص 100

(20) الرافعي : وحي القلم، ج3 ص 324

(21) نفس المصدر، ج3 ص 324

(22) نفس المصدر، ج3 ص 356

(23) نفس المصدر، ج3 ص 409

(24) نفس المصدر، ج3 ص 394

(25) نفس المصدر، ج3 ص 394

(26) نفس المصدر، ج2 ص 8

(27) ضيف الله : نثر الرافعي، ص 239

(28) الرافعي : وحي القلم، ج2 ص 20

(29) نفس المصدر، ج2 ص 22

(30) نفس المصدر، ج2 ص 60

(31) نفس المصدر، ج2 ص 61

(32) نفس المصدر، ج2 ص 12

(33) نفس المصدر، ج2 ص 73

(34) نفس المصدر، ج1 ص 81

(35) نفس المصدر، ج1 ص 83

(36) نفس المصدر، ج1 ص 240

(37) نفس المصدر، ج2 ص 241

(38) نفس المصدر، ج2 ص 242

(39) نفس المصدر، ج2 ص 235

(40) نفس المصدر، ج1 ص 263

(41) نفس المصدر، ج3 ص 170

(42) نفس المصدر، ج3 ص 172

(43) ضيف الله : نثر الرافعي، ص 245

(44) شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر، ص 247

(45) الرافعي : وحي القلم، ج1 ص 162

(46) نفس المصدر، ج1 ص 167

(47) نفس المصدر، ج1 ص 171

(48) نفس المصدر، ج3 ص 157

(49) نفس المصدر، ج3 ص 161

(50) نفس المصدر، ج3 ص 393

(51) نفس المصدر، ج3 ص 395

الخـــاتـمـــة

بعد المجهودات المتواصلة التي دامت قرابة ستة أشهر، أشعر بأني وصلت إلى أن الرافعي كان من أولئك الكتاب المصريين الذين بذلوا فصاري جهودهم لتنمية اللغة العربية و آدابها في بداية القرن العشرين، و من أصحاب الفكر الدقيق الذين يملؤون النفس إعجاباً بما يكتبون.

لقد كتب كثير من العلماء البارزين عن الرافعي، فقالوا شاعر، و قالوا كاتب، وقالوا أديب، وقالوا عالم، وقالوا مورخ، ولكني أرى أنه كان شيئاً غير الشاعر و الكاتب و الأديب والمورخ، هو أنه كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة في هذا الزمان، لينبهها إلى حقائق وجودها، ويشخص لها شخصيتها التي تعيش باسمها ولا تعيش فيها. فقد كان أديباً ممتازاً بأسلوبه وبيانه، و عربياً شديد الإيمان بعروبته، ومومناً قوي الاعتقاد بإسلامه.

عاصر الرافعي كثيراً من الشعراء البارزين و الأدباء الكبار و عرف اتجاهاتهم المختلفة، و طريقة تفكيرهم ، وأساليبهم في الحياة، فاقتبس منهم ما أمكن، ثم أضافه إلى ما في طبعه و مواهبه. بدأ حياته الأدبية بالشعر، و نظم أشعاره في أصنافها، وتغنى بها مشاعر ذهنه و خواطر قلبه. أصدر دواوين شتى في مدة ما بين 1903 و 1908م. ثم ترك تقريض الأبيات و انصرف إلى النثر و ميدانه الرحيب حيث لا يتقيد بالقوافي و الأوزان.

بدأ الرافعي حياته النثرية بكتابة " تاريخ آداب العرب" عام 1911م. وعرف به في الأوساط الأدبية والعلمية، وقرضه غير واحد من مشاهير الكتاب، منهم أحمد لطفي السيد، و شكيب أرسلان وسعد زغلول.

ثم مال الرافعي إلى الأدب الإنشائي، فأصدر "حديث القمر" على أسلوب رمزي تغلب عليه الصنعة اللفظية، و "كتاب المساكين" في عام 1917م وَ استوحى معانيه من الأحداث المؤلمة التي كانت تعيش فيها الإنسانية من جوع وفقر وقحط و إزهاق للأرواح التي أسفرت عن الحرب العالمية الأولى.

وفي كتابه. "رسائل الأحزان" يبحث عن فلسفة الجمال و الحب. ويعارض فيه كتاب "آلام فرتر" لشاعر ألماني "جوت" . وسبب تأليفه هو حب الرافعي للآنسة "مي زياده"،وبعد مدة قصيرة قام بتأليف الكتاب الآخر في آنسة "مي زياده" و بحث فيه عن فلسفة الغضب و طيش المرأة. و يعد هذا الكتاب جزءاً ثانيا لرسائل الأحزان، لأنه يتصل بنفس الموضوع و هو علاقة الرافعي. بـ "مي زياده" . و كتابه "أوراق الورد" هو تتمة هذين الكتابين السابقين: رسائل الأحزان، و السحاب الأحمر، لأنه يتصل بنفس الموضوع.

و لما احتدمت المعركة في عام 1923م بين القديم و الجديد حمل لواء المحا فظين و هجم على طائفة طه حسين (طائفة المحدثين). ونقد على آرائهم نقداً لاذعاً. وكتب كتابه "تحت رأية القرآن" في الرد على كتاب الدكتور طه حسين "في الشعر الجاهلي". والكتاب يشتمل على مجموعة مقالات بعضها قديم نشرها إبان ظهور الجامعة المصرية و بعضها جديد أنشاهابعد ظهور كتاب الدكتور. و في الكتاب أيضا بعض المقالات التي أخذها من أنصاره. و جميع المقالات تدور حول موضوع الدفاع عن اللغة العربية و أساليبها البيانية و التراث العربية.

أما كتابه "على السفود" ألفه في نقد العقاد خاصة، و يشتمل على مجموع مقالات نشرتها مجلة العصور في فترة ما بين عام 1929و 1930م، دون أن يذكر اسمه، ثم قام الرافعي بطبعهاكذلك.

وفي الباب الثالث بحثت عن كتابه القيم " وحي القلم" و هو يتألف من ثلاثة أجزاء و يشمل على مجموع مقالات مختلفة من الفنون المتعددة بعضها تتعلق بالقصة و فلسفتها و بعضها بالبحوث الأدبية والنقدية والقضايا الاجتماعية و الوطنية، و كلها لم تخل من القيم الإسلامية و العربية. و يحتمل على جميع خصائص الرافعي الأدبية متميزة بوضوح في أسلوبه، وخصائصه العقلية والنفسية متميزة بوضوح في موضوعه. فتوجد "فيه خلقه و دينه، و فيه شبابه، وعاطفته، وفيه تزمته ووقاره، و فيه فكاهته ومزحه، و فيه غضبه و سخطه، فمن شاء أن يعرف الرافعي عرفان الرائي و الفكرة و المعاشرة فليعرفه في هذا الكتاب" (1) الرافعي : وحي القلم، ج1 ص 13.

المصادر والمراجع

1. مصطفى صادق الرافعي — تاريخ آداب العرب ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974م.
2. مصطفى صادق الرافعي — تاريخ آداب العرب ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974م.
3. مصطفى صادق الرافعي — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1974م.
4. مصطفى صادق الرافعي — وحي القلم ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
5. مصطفى صادق الرافعي — وحي القلم ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
6. مصطفى صادق الرافعي — وحي القلم ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
7. مصطفى صادق الرافعي — أوراق الورد، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، 1953.
8. مصطفى صادق الرافعي — تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت.
9. مصطفى صادق الرافعي — رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب، مكتبة التجارية الكبرى بمصر، 1958
10. مصطفى صادق الرافعي — كتاب المساكين، دار الكتاب العربي، 2000.
11. محمد يوسف كوكن — أعلام النثر والشعر في العصر العربي الحديث، دار حافظة للطباعة والنشر، مدراس 1982م
12. د/محمد محمد حسين — الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج1، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1970م
13. الدكتور محمد محمد هيكل — الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج2، دار الإشارة بيروت، 1970م.
14. طه حسين — حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر
15. خير الدين الزركلي — الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملائيين، بيروت، لبنان، 1986م
16. أنور الجندي — المعارك الأدبية في مصر منذ 1914 – 1939، مكتبة الإنجليزية المصرية، القاهرة، 1983م
17. أنور الجندي — أعلام وأصحاب أقلام، دار نهضة، مصر،
18. ضيف الله م. ح. م. — نثر مصطفى صادق الرافعي، دار مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م.
19. دكتورة نعمات أحمد فؤاد — دراسة في الأدب العربي، دار الفكر العربي.
20. محمود طرشونة — الأدب المريد في مؤلفات المسعودي، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، 1989.
21. سلسلة الأعمال المجهولة — محمد عبده، تحقيق وتقديم: الدكتور علي شلش، رياحي الرّيس للكتب والنشر، لندن.
22. سلسلة الأعمال المجهولة — جمال الدين الأفغاني، تحقيق وتقديم: الدكتور علي شلش، رياض الرّيس، للكتب والنشر، لندن.
23. الدكتور أحمد هيكل — خطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، 1983.
24. عمر الدسوقي — في الأدب الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت.
25. أنيس المقدسي — الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الأخيرة،

دار الكاتب العربي، بيروت، 1963.
26. أنيس الخوري المقدسي — الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملائيين، بيروت، 1960.
27. أحمد الهاشمي — جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، (مطبعة المقتطف والمطعم بمصر)
28. محمد سعيد العريان — حياة الرافعي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، عام 1955
29. عبد الستار علي السطوحي — الجانب الإسلامي في أدب مصطفى صادق الرافعي، مكتبة الثقافة، مصر
30. أحمد حسن الزيات — تاريخ الأدب العربي، دار المعافة، بيروت،
31. أحمد حسن الزيات — وحي الرسالة، القاهرة، 1949م.
32. عباس خضر — الواقعية في الأدب، دار الجمهورية، بغداد، 1967م.
33. الدكتور محمد رجب البيّومي — مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن، دار القلم، دمشق.
34. جرجي زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ج4، دار العلم للملائيين، بيروت.
35. الدكتور شو راي شودري — النهضة والتطور في الأدب الحديث، مكتبة إشاعة الإسلام، 1982

Mustafa Sadiq Al-Rafi'i in the light of "Wahi-e-Al-Qalam" (An Appraisal)

Dissertation submitted to the Jawaharlal Nehru University in partial fulfilment of the requirements for the award of the Degree of

MASTER OF PHILOSOPHY

By

Anisur Rahman

Under the Supervision of

Dr. Zohurul Bari Azmi

Centre of Arabic & African Studies
School of Language, Literature & Culture Studies
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067
2004